

اعترافات

أبو نواس

اعترافات أبو نواس

بقلم
كامل الشناوي

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

ليالي « أبو نواس » مع أستاذه الأول

... أستاذه الذى علمه الشعر والكفر والمجون

أبو نواس، الشاعر، الساحر، العرييد.. أبوه هائق، كان جندياً ثم اشتغل بحياكة الملابس، ورعى الغنم. وأمه «جلبان» امرأة لعوب. سلبت لب والده وتزوجته، فلما مات أحببت فتى اسمه العباس، وجعلته زوجاً لها، وكانت صناعته الوحيدة أنه زوج أم أبي نواس!

من شعراء القرن الثانى الهجرى. اسمه ابن هائق، وكنيته أبو نواس، أو ذو نواس.

كان عصره عصر العلم والمعرفة والحضارة، عصر الفتن، والانقلابات السياسية، والثورات الفكرية، فقد ولد عندما كانت دولة الأمويين فى طريقها إلى الظل، وكانت دولة العباسيين تأخذ مكانها تحت الشمس. وفى عهد هذه الدولة اتسعت اللغة العربية، لثقافة الصين، والهند، وفارس، والرومان، واليونان، وأبيحت حرية الفكر، وحرية التعبير،

وحرية العقيدة، حرية الهدى والضلال، حرية التقوى
والفجور! حرية السمو إلى البحث عن الحقائق، وحرية
التدحرج إلى المجون والانحلال.

وسما أبو نواس.. وتدحرج! بحث وعبث.. كفر
وتاب..

ما أكثر الشبهات التي تحوم حول هذا الشاعر..!
هل كان حائرًا بين الشك واليقين؟ هل كان مؤمنًا
عاصيًا؟ هل كان بلا دين؟

ما حقيقة أمه «جلبان»؟ لماذا انتقلت من «الأهواز» إلى
مدينة «البصرة»؟ كيف كان بيتها الذي أعدته لاستقبال
العشاق.. لقد كانت لا تكتفي بتقديم الخمر والطعام لروادها،
بل كانت تقوم أيضًا بتقديم النساء للرجال. والرجال للنساء.
وتعطيهم الفرش والغطاء.. وتخزيهم بأن يبيت بعضهم بعضًا
لواعج الحب، والشوق، والشهوة، وكان أبو نواس يعيش
خارج البيت.. في الليل يطلب العلم بمسجد البصرة، على
أساتذة اللغة والفقه والأدب، والحديث، وتفسير القرآن، وفي
النهار يشتغل صبي عطار!

لقد حكم التاريخ على أبي نواس بالميوعة، والانحلال،
والخلود!

حكم التاريخ على أبي نواس بالفساد وألقى القبض على
الشاعر الفاجر والبة بن الحباب واتهمه بأنه أول من أفسد
أبا نواس! فقد اغتصب أبا نواس من العطار، وأخذه إلى
«الكوفة» حيث أقاما معاً في بيت واحد، وفراش واحد،
وكان والبة أستاذاً كبيراً في الشعر، والزندقة، والفجور..
وكان يجهر بزندقته ويتهتك في فجوره..

.. وكان اسمه يدوى في المدائن الثلاث الكبرى: بغداد،
والبصرة، والكوفة. وكانت الكوفة موطنه، ومحل إقامته. وهو
من قبيلة عربية، ولكن خصومه طعنوا في نسبه. فقد كان
وجهه أحمر، وشعره أشقر، وهجاه الشاعر أبو العتاهية فقال:
هذا الأشقر الأحمر كيف يكون عربياً «ولسونه من
بني قيصر»!؟ وشبه وجهه بالرثة الحمراء.. وشبه رأسه
بالطائر الأصفر.

لماذا غضب الرشيد على أبي نواس؟ كيف دخل السجن،
وكيف كانت حياته في السجن؟ ما حقيقة علاقته بالخليفة

الأمين؟ هل كان بينها حب وغزل. أو كانت بينها مودة
وصداقة؟ من هي المرأة التي أحبها؟ وهل هي امرأة واحدة؟
أم هن أكثر من امرأة؟ ما سر تعلقه بالخمير؟ هل كان يرتاد
المواخير والحانات في الأديرة، والقرى، وضواحي بغداد طلباً
للخمير وحدها، أم كان يطلب الخمر وأشياء أخرى غير
الخمير؟! من هم أصدقاؤه «عصبة المجان» وكيف كانت حياته
معهم؟

هل كانت لأبي نواس عقيدة دينية، هل كانت له فكرة
سياسية؟ هل كان له مذهب فني، أو مذهب في الفلسفة؟
إن الذين كتبوا عن أبي نواس لم يقولوا الحقيقة كلها...
لم يقولوها جهلاً، أو غيرة، أو حياء..
أبو نواس وحده هو الذي يستطيع أن يقول الحقيقة،
ويعترف بها دون جهل أو غيرة، أو حياء!!

في سوق العطارين:

وقابلت أبا نواس... قابلته من خلال شعره. وما كتبه
عنه أكثر من ثلاثين كاتباً في مواضع متفرقة من كتبهم. وفي
دراسات خاصة عنه. والتقيت به في ثنايا التاريخ، إن بيني

وبينه اثني عشر قرنًا، طويتها القهقري، ورأيتُه وجهًا لوجه في القرن الثاني الهجري، في البصرة... في سوق العطارين... في دكان عطار.

السوق مزدهمة بالدكاكين، وقد جلس في عتبة كل دكان صاحبها، ووقف إلى جانبه صبيه، وعتبات الدكاكين مفروشة بالسجاجيد العجمية، وأصحاب الدكاكين يرتدون ملابس زاهية الألوان.. وقد وضعوا على رؤوسهم عمامة مدببة. ورواد السوق من جميع الأجناس والأديان. بينهم العربي والفارسي والمسلم والمسيحي واليهودي والمجوسي. وقد ضاقت مسالك السوق. وكثرت التواءاتها، وتعددت دروبها ومدخلها. وعلى أبواب الدكاكين تبرز مختلف البضاعات وقد عرفت من بينها الصندل، وأعواد البخور، والزيتون، والكمون، والشيح واللبان، وأواني من الخزف والفخار. الحركة في السوق دائبة. والزحام شديد.

وذهبت إلى الدكان الذي اختاره أبو نواس للجلوس فيه.. كان صاحب الدكان شيخًا في السبعين من عمره. وعندما وصلت إلى دكانه كان ينهض من فوق السجادة

بمساعدة صبيه في طريقه إلى بيته ليتناول طعام الغداء، وألقيت عليه تحية الإسلام وقلت للرجل: أين أبو نواس؟ فقال: أبو نواس هناك في الطرف الآخر من الدكان..

كان جالساً فوق سجادة، وقد اتكأ إلى أريكة، وأسند ظهره إلى أريكة، وثني إحدى رجليه، ومد رجله الأخرى.. كان ناحلاً أشيب الشعر. وكانت لحيته خفيفة.. وجهه شاحب وعينه صغيرتان براقتان. سوادهما ناصع، وبياضهما تشوبه صفرة.

وقلت له: لم أتصور أنك أبو نواس...

فقال: أنا هو!

قلت: إن أوصافه لا تدل عليك.

فقال: من أين أنت؟

قلت: من القرن العشرين!

فقال: هل وصلت إلى القرن العشرين؟ لقد ظننا أنكم

لا تزالون في القرن الرابع عشر!

قلت: لك حق.. نحن بالتاريخ الهجرى في القرن الرابع

عشر.. وبالتاريخ الميلادى في القرن العشرين.

فقال : يحسن أن نتفق على تاريخ .
قلت : لتتفق على التاريخ الهجرى حتى لا نخطئ... أنا
من القرن الرابع عشر...
فقال : من أى بلد؟
قلت : من مصر!
فقال : أعرفها... فقد زرتها وقابلت فيها الخصيب،
ما أجمل منية الخصيب! ما اسمها الآن؟
قلت : اسمها المنيا فقط!
فقال : لقد مدحت ابن الخصيب بقصيدتي التى أقول
فيها :

لا أذود السطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره!
وغضب شعراء مصر، وهاجموني، وقالوا كيف يقتحم علينا
بلادنا شاعر غريب عنا. ويستأثر بهبة الأمير؟ ولكنى عرفت
كيف أهدئهم، فقد اشترطت على الأمير قبل أن أنشد
قصيدتي أن يجيز شعراءه فأمر لكل واحد منهم بجائزة عظيمة!

الشباب.. والزمان :

قلت : ولكنى ما زلت أشك فى أنك أبو نواس! فإن

الأوصاف التي نعرفها عنه، لا تنطبق عليك.

قال : وماذا تعرف عن أوصاف أبي نواس ؟

قلت : إن أراك شيخًا وقورًا، جلدته الشيب، والاتزان والهدوء، وأبو نواس الذي نعرفه، كما وصفه ابن منظور «حسن الوجه رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم، وكان شعره منسدلاً على وجهه وقفاه، ألشغ يجعل الرء غينا، لحيف، في حلقه بجة لا تفارقه»!

وما أراه الآن شيء آخر!!

وضحك أبو نواس وقال : إنك تتكلم عن أبي نواس في صباه. هكذا كنت ولكن الزمن غيرني. ألم تعرف قولي :

لقد طالما كنا ملاحًا وربما صددنا، وتمنا، ثم غيرنا الدهرا

قلت : لقد جئتك من وراء القرون لأراك. وأحقق أشياء

حامت حولك ولصقت بك... وربما كنت بريثًا منها، وليس

في مقدور أحد سواك أن يؤكد براءتك...

فقال : ومن أخبرك أني حريص على أن أكون بريثًا؟ أنا

لا أريد أن أكون بريثًا، ولا مذنبًا.. ولكني أريد أن أكون

كما أنا!!

قلت : ومن أنت ؟

فأعاد السؤال لي قال : ومن أنت ؟

قلت : أنا قارئ لأشعارك وأطمع في أن أعرف حياتك،
وفنك وعقيدتك وسلوكك الشخصي ..

فقال : هل هذا أمر مألوف عندكم ؟

قلت : هو أمر مألوف جداً .. فلست أبغى منك أكثر
من حديث.

فقال : إن الحديث لا يقوله إلا نبي !

قلت : نعم .. الحديث الشريف لا يقوله إلا نبي !

فقال : وهل تريد حديثاً غير شريف !

من هم الصحفيون ؟

قلت : لا أعني ذلك ! ولكنني أردت أن أظفر منك
بحديث صحفي .. أو تحقيق صحفي .. وهذا ما يجري عليه
العرف دائماً في أيامنا !

فقال : إن أيامكم تختلف عن أيامنا يا بني .. لقد كنا
نهجو الرواة فنقول إنهم « صحفيون » .. ينقلون رواياتهم من

الصحف.. . أى الكتب المصحّفة، المحرّفة ولا يسندونها إلى مصادرها، وقد طلب منى أستاذى «خلف الأحمر» أن أرثيه قبل أن يموت فقلت مادحًا له :

فكل ما نشاء منه نعترف رواية لاجتنبى من الصحف

ويظهر أن ما كان عندنا عيبًا أصبح عندكم مزية

قلت : إن الصحافة فى هذه الأيام شىء آخر غير الصحف التى حدثتفى عنها.

وحاولت أن أشرح له مهجة الصحافة ولكنه أفهمنى أن حالته اللهنية لاتسمح بالخوض فى أمور لا يعرفها.

وقال : لقد فهمت أن الحديث الذى تريده هو سؤال منك وجواب منى.. . إن كان كذلك فاسأل عما تشاء.

أبو نواس يروى قصة حياته :

- متى ولدت؟

- فى سنة ١٤٠.

- من هو أبوك؟

- هانى.. . عربى شجاع.. . كان جنديًا فى جيش مروان،

وذهب إلى الأهواز. . . وهى تقع بين البصرة وفارس. . . وهناك عرف أمى فتزوجها. وأمى اسمها «جلبان» من أصل فارسى. ولما انهزم جيش مروان وقامت دولة العباسيين ترك أبى خزيمة الجيش. واشتغل بحياكة الملابس. وكان يسرعى الغنم. ثم مات. فتزوجت أمى شخصاً يدعى العباس. وانتقلنا إلى البصرة. وقد أحبت البصرة واتخذتها وطناً لى.

- ما اسمك؟

- الحسن بن هانى.

- ما كنىتك؟

- أبو على.

- ولماذا سميت أبا نواس؟

- كان أستاذى خلف الأحمر عالماً بالأنساب وقد هداه البحث إلى أنى من اليمن. انحدر من صلب أمير من أمراءها، وكان لكل أمير كنية. فهذا ذو المنة. وهذا ذو الحكمة. وهذا ذو نواس. وأعجبني ذو نواس فاخترته. ولكن الناس أرادوا أن تكون كنىتى أبا نواس، وليس ذا نواس وقد كان لهم ما أرادوا.

أستاذة الذى أفسده :

- من الذى علمك الشعر؟
- والبة بن الحباب؟
- لقد قيل إنه علمك الفسق.
- والشعر أيضاً؟
- هل كان والبة فاسقاً حقاً؟
- وكان شاعراً حقاً!
- هل صحيح بعض ما يقال؟
- كل ما يقال!
- وكيف كان ذلك؟
- كنت أشتغل صبياً فى دكان عطار.. هذا العطار..
- الحسن بن سليمان. وكنت جميل الصورة، حلواً، جذاباً.
- وكانت أمى قد جعلت من بيتها مباءة للعشاق والفساق.
- فهجرت البيت وأقت مع الحسن فى بيته. فعاملنى معاملة
- الوالد لابنه. وكان حنوناً رحيماً. كان حبه لى حباً عفيفاً، وفى
- يوم من الأيام جاءه رسول من «أبى بجير الأسدى» حاكم

الأهواز، ودعاه إلى العمل في داره فأخذني معه. وهناك التقينا
بوالبة بن الخباب. وهو ابن عم الحاكم. وكان قد جاء من
الكوفة ليزوره ويطلب رقه. فلما رأني أحببني. وأدناني منه.
وقد كنت أميل إلى الشعر. وأسمع اسم والبة يتردد على
الأفواه، وأحفظ كثيرًا من شعره، ولم أكن أعرف شخصه.
فلما عرفته أقبلت عليه بكل جوارحي، وقد اتفق معي على
أن أصحبه إلى الكوفة في غفلة من الحسن العطار.

- كيف أغراك بالذهاب إلى الكوفة؟

- قال «إني أرى فيك مخايل فلاح.. وأرى لك
ألا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبنى».
وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف من هو فسألته من
أنت؟

فقال: والبة! فصرخت من الفرح وقلت له: «أنا والله
- جعلت فداك - في طلبك، وقد أردت الخروج إلى الكوفة
وإلى بغداد من أجلك» فسره ذلك وسألني: لماذا تطلبني؟
فقلت: شهوة للقاءك، ولآبيات سمعتها لك فقال: وما هي
هذه الآبيات؟

فأنشدتها وهي التي يقول فيها :

ولها - ولاذنب لها - حب كأطراف الرماح

جرحت فؤاك بالهوى فالقلب مجروح النواحي !

- هل كان والبة يحب جمالك . أو كان يحب شعرك ؟

- جمالى وشعري !... ألا تعرف قصته مع شعري ؟

- أريد أن أعرفها .

- كنا فى الكوفة فى منزل محمد بن سيار بن يعقوب .

وكان عنده قيان يغنين . ومجلس شراب . استمر حتى الصبح .

وأعجبتنى إحدى العازفات ، فقلت فيها هذه الأبيات :

حامل الهوى تعبُ يستخفه الطربُ

إن بكى يحق له ليس ما به لعب

تضحكين لاهية والمحب يتحسب

تعجبين من سقى صحتى هى العجب

وفى اليوم التالى اجتمع عند والبة جمع كبير من الشعراء

فقال لهم : «كنت نائماً أمس ، وأبو نواس إلى جانبي إذ أتاني

آت فى منامى وقال : أتدرى من هذا النائم إلى جانبك ؟

قلت : لا . فقال : هذا أشعر منك . وأشعر من الجن

والإنس . أما والله لأفتنن بشعره المشرق والمغرب . فعلمت أنه إبليس . . فقلت له : فما عندك ؟ قال عصيت ربي في سجدة فأهلكني . ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت ! « قلت : هذه قصة والبة مع شعرك . . فما هي قصة غرامه معك ؟

قال : دع هذا الآن . . .

- هل أخرجتك بهذا السؤال ؟

- لأشياء يخرجني .

- ربما يضايقك أن تتكلم في هذا الموضوع بصراحة ؟

فابتسم وقال : كيف وأنا القائل :

أطيب اللذات ما كان جهازا

- ولماذا إذن لا تريد أن تتكلم عن غرام والبة بك ؟

- لقد تعبت اليوم من الكلام . . فأمهلني إلى غد .

- ستتكلم غداً عن والبة ؟!

- نعم . . عن غرامه بي . . عن شعره وزندقته وأستاذيته

لي - الشعر والزندقة !

أبو نواس لا تنقصه الصراحة!!

لماذا هدده أستاذه بالذبح.. وشهر عليه السكين؟!
لياليها في مجالس الشعر والغناء، وبيوت اللهو والمواخير!!

أريد أن أنسى:

.. هل تذكر وعدك لي بأن تحدثني عن والبة.. أستاذك
الذي أفسدك وعلمك الشعر والكفر والمجون؟

فقال أبو نواس: أريد أن أنسى هذا الوعد!

- لماذا تريد أن تنساه؟

- بعد ما تركتني أمس، فكرت طويلاً وهداني تفكيرى
إلى أنه ليس من الصواب أن أفصح سرى، وسر رجل آخر
كل ذنبه أنه أحبنى..

- ولكن هذا السر مفضوح فعلاً.. وقد ظل حديث

الناس على مدى القرون!

- مادام الناس قد عرفوه فلا حاجة بهم إلى أن يعرفوه مرة أخرى!
- ولكنهم لم يعرفوه على حقيقته.. فقد سلط السرواة خيالهم على كل ما يتعلق بك فضاعت الحقيقة.
- من الخير لي أن تضيع هذه الحقيقة!
- ولكن البحث عن الحقيقة واجب..
- إنه واجب بالنسبة إلى الفلاسفة.. ولستُ فيلسوفًا!
- ولكنك شاعر وفيلسوف..
- أنا شاعر فقط.. ولم أبحث عن الحقيقة في شيء.. ولم أجدها في شيء!!
- وإذا وجدتها ألا تعترف بها؟
- إذا وجدتها أهرب منها.. فلا شيء يفسد الخيال مثل الحقيقة!! وأنا حريص على أن يظل خيالي صحيحًا!
- لقد وعدتني.. ووعدُ الحر دين عليه!
- كيف يكون حرًا من يمزق شرفه بجد لسانه؟
- يكون حر الفكر..
- هل هذا أمر مستساغ عندكم؟

- ليس مستساغاً.. ولكنه موجود!
- هل يوجد من اعترف بفضائحه؟
- كثيرون اعترفوا.. بعضهم قال كل الحقيقة.. وبعضهم قال نصف الحقيقة.. وبعضهم قال غير الحقيقة! وقد صاروا مثلك.. حديث الناس!
- هل تذكر منهم أحداً؟
- أذكر القديس أوجستين.. وجان جاك روسو.. وأوسكار وايلد.. وأندريه جيد..
- هذه أسماء غريبة!! من أية قبيلة هي؟ وهل أصبحت الاسماء هكذا في زمانكم؟
- هذه ليست أسماء عربية.
- أسماء أعاجم إذن؟!
- هذه أسماء أدباء أوروبيين!
- ماذا تقول؟!
- العالم الآن ليس قبائل.. ولكنه قارات... وكل قارة تنقسم إلى دول.. وهؤلاء الأدباء من القارة الأوروبية..
- دعنا من هذه التفاصيل وقل لي بماذا اعترف هؤلاء؟

- لقد اعترفوا بما حدث لهم في صباهم.. تسكلموا
عما وقع عليهم من اعتداءات.. تحدثوا عن شذوذهم الجنسي!
- لقد فهمت أن بينهم قديسًا.. فهل اعترف القديس
أيضًا بما جرى له بالتمام والكمال؟!

- بالتمام والكمال!

- وماذا قال الناس عنهم؟

- استنكروا نقائصهم.. وأشادوا بمزاياهم..

مع والبة :

- وماذا تريد مني الآن؟

- أريد أن تحدثني عن حياتك مع والبة في الكوفة..

حياة الليل وحياة النهار.. حياة الجد وحياة العبت.. حياة
الصحو وحياة السكر والعريضة..

وهنا قاطعني أبو نواس قائلاً :

- كفى.. كفى!! لقد صدعت رأسي بهذه الألفاظ الغريبة

على أذني.. قارة أوربية!! جان جاك روسو!! أوجستين!!

ويظهر أنه لا أمل في الخلاص منك إلا بالاعتراف لك..
اسمع، ولا تقاطعنى :

- كنت وأنا في البصرة أسمع عن والبة بن الحباب فقد
كان الناس يتحدثون عن شعره ومجونه، وكنت طفلاً عندما
قدم البصرة مع الحاكم الجديد محمد بن أبي العباس.

- في أى سنة كان هذا؟

- في سنة ١٤٧.

- لقد كان حاكم البصرة إذ ذاك محمد العلوى فيما
أظن؟

- بعدما قتل محمد العلوى تولى الحكم بعده محمد
ابن أبي العباس بأمر من الخليفة أبي جعفر المنصور...

- الذى أعرفه أن السفاح هو الذى تولى الحكم بعد
محمد العلوى..

- لقد كان محمد بن أبي العباس سفاحاً حقاً، فهل
جعل التاريخ صفته اسماً له، وعلماً عليه فأصبحتم لا تعرفونه
إلا باسم السفاح..؟

في قصر السفاح :

واستطرد أبو نواس يقول :

- جاء الحاكم الجديد أو الأمير الجديد، ومعه جماعة من الشعراء بينهم حماد عجرد، ووالبة بن الحباب، وكان الناس يتحدثون عن نزوات الأمير، وإفراطه في الشراب ومجالسه التي تغنى فيها القيان، وترقص الجوارى، وينشد الشعراء ما ينظمونه في مدح الأمير، ووصف الخمر، والتشبيب بالغانيات، وكنا نسمع عما يجرى في هذه المجالس من زندقة ومجون وفسق. وكيف أن الأمير كان يعطى الشعراء والمغنين والراقصات بلا وعى ولا حساب.. كان يحب زينب بنت سليمان. وكان يريد أن يعبر عن حبه لها بالشعر. ولكنه ليس بشاعر. فكان يعقد مجلس الأناج والشراب كل ليلة. وأمامه زينب وحولها الجوارى يرقصن، والقيان يغنين، والشعراء يجهدون قرائحهم للتعبير عن عواطف الأمير. فإذا نظم أحدهم أبياتاً أعطاها لمغنى الأمير.

- من هو مغنى الأمير؟

- اسمه «حكم» أليس معروفاً في أيامكم؟

- معروف في الكتب!

- ألم أقل لك لا تقاطعني حتى أستطيع مواصلة

الحديث؟

- أنا لا أقاطع ولكني أستوضح.

- لقد نسيت ما كنا نتحدث فيه..

- كنت نتحدث عن مجلس السفاح وحبه لزینب.. وغناء

حكم!

- نعم.. كان حكم يغني للأمير ما ينظمه حماد أو والبة

وبعدما تلور الكؤوس وتلور السروس.. يقف الأمير - وكان

طويلاً عريضاً قوى البناء - فيهتز ذات اليمين وذات الشمال،

ويضرب الأرض برجليه.. ويصيح في حكم.. غنى. فإن

أطرتني أعطيتك كل الهدايا التي تلقيتها اليوم.

وكان دائماً يغرق حكماً، وحماداً، ووالبة بالهدايا والعطايا.

ونسلم نحن عن هذه المجالس كما لو كانت أسطورة أو خيالاً!

في هذه الأيام عشقت والبة بالسماع. وتمنيت لو رأيته بعيني.

ولكن والبة لم يمكث في البصرة طويلاً. وغاد إلى الكوفة دون أن أراه.

- هل أستطيع أن أسألك كيف استهل السفاح حكمه بهذه الخلاعة وقد جاء عقب مقتل العلوي؟ وكيف سكت الخليفة أبو جعفر على ذلك، والمفروض أنه عينه على البصرة ليمثل هيئة الخلافة ووقارها؟!

- إن محمد بن أبي العباس أو السفاح كما سماه التاريخ. كان في مجالس لهوه حمامة وديعة، وكان في مقعد حكمه أسداً ضارياً!

- ولكن سوء السمعة يقلم أظفار الأسد!

- إن السفاح ابن أخى الخليفة المنصور وقد أغضى عن مبادئه ليمتدح فيها، ويجعل الناس يقارنون بينه وبين المهدي ابن الخليفة، فيرتفع المهدي في أعينهم..

ونظر إلى أبو نواس في غضب وقال:

- ولكن ما علاقة هذا بالكلام عن والبة؟

لا تعترضني بمثل هذه الأسئلة العجيبة!! واعلم أن ذاكرتي

ليست كتاباً حتى تعي كل ما حدث في عصرى.

- فلنعد إلى والبة.

- لقد عرفت كيف التقيت به في الأهواز، وأخذني إلى

الكوفة، وقد وجدتها بلدة جميلة. جوها أرق من جو البصرة،
وإن كانت تقل عنها في فخامة الأبنية.

- أين أقمت في الكوفة؟

- أقمت مع والبة في بيت واحد. وكان بيته مؤلفاً من

ثلاث غرف. خصص لي إحداها. وكانت تخدمه سيدة عجوز
تمت إليه بصلة القرابة. وكان يعاملني كما لو كنت أخاه. وقد
دامت صلة الأخوة سبعة أيام فقط!

- ثم ماذا حدث؟

- حدث ما قاله الناس عنا.

- وكيف حدث ذلك؟

- كان والبة حريصاً على ألا يعرف أصدقائه شيئاً عن

علاقتي به. وقد بقيت ثلاثة أيام لا أظهر معه. وكان أهل

الكوفة يتساءلون كلما رأوني: من هذا الشاب الغريب؟

وكثيرًا ما سئلت : من أى بلد أنا. ولماذا أنا هنا. فكنت
أزعم أنى ابن أحد تجار البصرة. وجئت الكوفة لشئون تتعلق
بتجارة والدى.

وفى أحد الأيام طرق بابنا الشاعر حماد عجرد وبصحبه
مطيع بن إياس ويحيى بن زياد الحارثى. وفتحت لهم الباب
فلما رأوني استغرقوا فى الضحك.. ونادوا بأعلى أصواتهم :
اخرج لنا يا أبا أسامة.. !

- ومن أبو أسامة هذا؟

- إنه والبة.. هذه كنيته. ألا تعرفون أن للرجل اسمًا
وكنية؟

- نعرف.. وعندنا من يقول عن حسن.. أبو على..
وعن إبراهيم.. أبو خليل!

- ألم أقل لك لا تقاطعنى؟

واستمر فى حديثه يقول :

- .. وخرج والبة إلى ضيوفه فلما رأهم تبادل معهم
الضحك.. وفهمت من حديثهم أن والبة أفهمهم ليلة أمس

أنه سيعتكف في البيت اليوم لشعوره بدوار في رأسه.. فلما جاءوا ليعودوه أدركوا أنه تخلص منهم ليكون لى وحدى، وأكون له وحده!

وقد قال حماد: لقد عرفنا الآن أنه ليس عندك دوار.. ولكن عندك هذا.. ومد سبابته نحوى! وقد غضبت من هذه المداعبة، وتركتهم ولزمت غرفتى فجاءونى ومعهم والبة وقالوا إن غضبي عزيز عليهم، ولم يزالوا بى حتى رضيت نفسى، وزال غضبى.

وفي اليوم التالى سهروا في بيت والبة، وقد أحضروا قنينات الخمر، والنبيد ومختلف الأطعمة وبعض المغنين والجوارى والغلمان، وأخذوا يشربون، ويرقصون، ويغنون حتى الصباح. ولم أشارك معهم في الشراب. وكانوا يرمقوننى بنظرات غريبة.. لم أفهمها!

- لم تفهمها؟!

- أفهمها الآن.. لكنى إذ ذاك لم أكن أفهمها!

ومضى يقول: بعد يومين ذهبت مع والبة إلى منزل محمد ابن سيار بن يعقوب. وقد أعد مجلساً اشترك فيه القيان،

والجوارى، والمغنون وأصحاب والبة من الشعراء والزنادقة.
وكان بين الحاضرين ابن صاحب المنزل، فاسترعاني جماله.
ونظمت فيه أبياتاً أنشدتها في الحال. أذكر منها:

خلقت في الحسن فردا فما لحسك ثنائ
كأنما أنت شيء حوى جميع المعاني

وأخذ الجميع ينشدون هذه الأشعار، ويغنونها وكان
صاحب البيت وابنه مبتهجين بأشعاري، وبعد هذه الليلة ذاع
اسمي في الكوفة.

وقد خرجت وحدي في الطريق. واختلطت بالناس
فلاحظت أنهم يتهامون ويتغامزون. وسألني أحدهم: كيف
حال الحبيب؟ وسألته: من هو الحبيب فقال: أبو أسامة..
فهمت بلطمه على وجهه، وحال الناس بيني وبينه. وقال لي
شيخ كبير وقور.. يا بني من وضع نفسه موضع الشبهة
فلا يلومن إلا نفسه.. ووالبة شيخ الزنادقة والفساق وقد
عشت معه في بيت واحد فاعذر الناس إذا ظنوا بك الظنون!
وحتى هذه اللحظة لم يكن بيني وبين والبة ما يجرح
العفة..

وطلب منى أن أصحبه فى رحلة صغيرة تستغرق يومين..
فذهبنا إلى بلدة «طيرناباذ» وهى تقع بين الكوفة والقادسية
ودخلنا بيتاً يدار للشراب صاحبه رومية، عجوز، شمطاء، وقد
رحبت بنا. ومدت لنا بساطاً حوى الشراب والطعام وخصتنا
بمكان بعيد عن بقية النزلاء.. وكان يقوم على خدمتنا فتاة
صغيرة تلبس ملابس الغلمان، وقد أخفت شعرها تحت قلنسوة
من القطيفة، فبدت كما لو كانت غلاماً حقاً. حاولت أن
أداعبها فنهاني والبة وقال: وماذا أصنع أنا هنا إذن؟

- فقلت: هل تريدان؟

- فقال: بل أريدك أنت!

ولما لاحظت دهشتى وخوفى قال لى إننى أمزح معك..
لا تخف! افعل بالفتاة ما شئت. ولكنك لن تستطيع شيئاً
إلا إذا شربت كما أشرب، وكان قد شرب كوزين وشربت
كوزاً واحداً؟

- هل كنتم تشربون بالكوز؟

- نعم.. وهو يسع رطلاً.

وكان والبة قد اتفق مع الفتاة على أن تضاعف لى كمية

الخمر فكانت تغافلني وتملاً كوزي كلما نقص، وقبل أن تلعب
الخمر برأسي لعبت الخمر برأس والبة فقال:
- لا تضيع وقتنا..

فنهزته بشدة.. فما كان منه إلا أن استل سكيناً من بين
ثيابه وقال لي: إما هذا وإما هذا..
فقلت له: اذبحني!

فقام من مكانه. وقبلني في جيبني وبكى. وحاول أن
يسترضيني.

قلت له: الناس إذن معذورون فيما يقولونه عنا. فسألني:
وماذا يقولون؟.. فرويت له ما يهسون به. وما حدث لي
مع الشيخ الوقور الذي حذرتني من صحبة والبة.. فقال
مساكين سيذهبون إلى النار بأثامهم. هل حدث بيننا شيء
ما همسوا به؟ ولما قلت له لم يحدث شيء بعد. قال:
مساكين.. سيذهبون إلى النار لأنهم كذبوا... لماذا
لا ندخلهم الجنة بأن نجعل كذبهم صدقاً؟
ثم أنشد هذين البيتين:

قم بنا يا نور عيني نجعل الشك يقينا
فلإي كم يا حبيبي يأثم القائل فينا..
وأطرق أبو نواس، وأغمض عينه كمن يتذكر شيئاً أو
يبدى ندماً وقال :

- منذ هذه الليلة.. أصبح الشك يقيناً!
- وذهبنا إلى الكوفة وقد أضمرت في نفسي أمراً..
- وماذا أضمرت؟
- ألا ترحم شيخوختي؟ اتركني اليوم.. وغداً أقول لك
كل شيء!



« أبو نواس » يهرب من أستاذه !!

عصر الزندقة والمجون..

الشعر والأدباء والخليفة :

قلت لأبي نواس : أتذكر كيف انتهى حديثنا أمس ؟

- ذكرني !

- لقد حدثتني عن اعتداء والبة عليك في حانة « طيرناباذ » وكيف هددك بالسكين فقاومته، وأغراك بالشعر فلم تستطع أن تقاومه.. وكان ما كان وأصبح الشك يقيناً !
وأطرق أبو نواس برأسه إلى الأرض وأغمض جفنيه وأخذ يقول :

- عدنا إلى الكوفة، وقد أضمرت في نفسي أن أهرب من والبة، وأعود أدرجى إلى البصرة. فقد تحول إعجابي بوالبة إلى شعور بالقت، والخزي، والانكسار. فكيف أعيش

معه في الكوفة؟ كيف أظهر بين الناس؟ ماذا أقول لهم إذا غمزوني في شرفي وعفتي؟ لقد كان ينجلني كذبهم فكيف أواجه صدقهم؟

لم أكد أستأنف حياتي في الكوفة حتى هدأت نفسي، فلم يقع شيء مما خفت أن يقع. لا غمز، ولا لمز، ولا أحد تحرش بي. وقد تعود أهل الكوفة أن يروني بينهم فكفوا عن مطاردتهم لي بالظن السيئ أو الظن الحسن.. لقد تركوني وشأني. ولا أخفي عنك أني دهشت من ذلك.. وكثيراً ما كنت أسائل نفسي.. مابال الألسنة التي تصايحت بتجريحي عندما كنت إنساناً بريئاً مظلوماً قد أصابها الخرس بعد ما لم أعد ذلك الإنسان البريء المظلوم.

- لعل أهل الكوفة لم يعرفوا شيئاً مما حدث بينك وبين والبة في طيرناباذ؟

- عرفوا كل شيء!

- لماذا سكتوا عنك إذن؟

- لأنني أصبحت مثلهم.

- ماذا تقول..؟ أهل الكوفة مثلك؟!

- عصرى كله مثلى!

- كيف تقول ذلك. فى عصرك عاش أقطاب العلم
والدين؟

وهنا قاطعنى أبو نواس قائلاً:

- لست أعنى بأهل عصرى أتقياءه ودهماءه، ولكنى أعنى
شعراءه وأهل الفكر فيه.. لقد كانوا جميعاً مثلى فسوقاً،
وزندقة، وإغراقاً فى اللهو والمجون.. أنا وحدى الذى وصلت
إليكم فضائحه؟ يا لظلم التاريخ!

- إننا نعلم أن عصرك كان حافلاً بالكفر والفسوق.. كفر
العقول وفسوق الآراء والأفكار.. أما كفرك وفسوقك فلم يقف
عند حد العقل والفكر بل تجاوزوا هذا الحد إلى أشياء يحمر
لها الجبين! ومن أجل هذا خصك التاريخ بعنايته!

- بل خصنى بلعنته... ولو كان التاريخ عادلاً لوزع
لعنته على شعراء عصرى جميعاً!

عشرون شاعراً فى بيت فجور!

فقد كانوا كلهم فساقاً فجاراً. وقد عرفتهم واحداً،

واحدًا، وشاركتهم في إثمهم وفجورهم وصراحتهم وريائهم...
كنا نقضى الليل في الحانات وبيوت اللهو. نشرب الخمر.
وتشرنا الخمر... نغتصب اللذة ونعطيها... وقد اجتمع في
ليلة واحدة عشرون شاعرًا وعالمًا، ولغوياً، وراوية، فأخذنا
نغنى، ونرقص، ونجشم الجوارى والغلمان، والقيان. ولقد
ظللنا في غيبوبة.. حتى اليوم التالى.

- أين كنتم؟
- فى البصرة.
- فى أية حانة؟
- فى بيت عبد الله بن رامين.
- هل هو أمير؟
- أمير اللذات!
- ماذا تعنى؟
- ألا تعرف بيت عبد الله بن رامين؟
- لا أعرفه.
- لعلك لا تعرف أيضاً بيت الشيخ زريق؟

- ما هذا؟ ابن رامين.. والشيخ زريق؟!

- إن ابن رامين والشيخ زريق كانا يتنافسان على تهيئة أسباب اللذة لأشراف الكوفة وكان لكل منهما بيت يجمع الجوارى والغانيات والحاذقين في الغناء والشعر والحسن والجمال.. وكان ابن رامين يمتاز بجواريه الحسان من أمثال سلامة الزرقاء، وربيحة، وسعدة!

- هل كان ابن رامين والشيخ زريق من هواة اللذة؟

- كانا محترفاً اللذة!

- وكان لهما أجر على ذلك؟

- أجر فاحش!

الجمال لا يتغير:

- كيف كان جمال النساء في أيامكم؟

- الجمال لا يتغير؟

- ولكن النظرة إليه قد تتغير!

- ماهو جمال المرأة في أيامكم أنتم؟

- رقة، وجاذبية، وانسجام في القسمات والأعضاء!

- ولقد كان كذلك في أيامنا.
- ألا تزال تذكر أوصاف ريحة، وسعدة وسلامة
الزرقاء؟

- أذكر من ريحة شعرها المجدول..
- وسعدة؟

- كانت بيضاء ناعمة!
- وسلامة الزرقاء؟

- أذكر ثيابها الزاهية.. ثيابها التي كانت تلتصق بها
فتعبر عن مفاتن جسمها وتنفرج عن صدرها فتبوح بأثرار
فتنتها.. وكان لها فوق شفتها العليا، شعر خفيف أشبه
بالشارب!

- وماذا كنتم تصنعون يا معشر الشعراء في هذه الليالي
مع هؤلاء الغواني؟

- كنا نشرب وننظم الشعر للأمراء والأشراف. ونأخذ
الجوائز والعطايا!

- وكانت الجوارى يأخذن جوائز وعطايا مثلكم؟

- كن يأخذن الألف.
- ألف الدراهم..
- ألف الدينير في الليلة الواحدة.
- هذه مبالغة..
- بل حقيقة... اسمع :

في هذه الليلة التي أمضيها في بيت ابن رامين كان معنا «معن بن زائدة» و«روح» وكلاهما ثرى أمثل فغنت سلامة الزرقاء فبعث إليها معن كيساً مملوءاً بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وبعث إليها روح كيساً آخر مملوءاً بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وكان مع أحد الأشراف لسؤلوتان اشتراهما بأربعين ألف درهم فعرضهما عليها، واشترط لذلك أن تأخذها بشفتيها من شفتيه!

ولم يكن عند ابن المقفع ذهب فكتب صكا نزل فيه عن ضيعته وأعطاه لسلامة!

- عبد الله بن المقفع يفعل هذا؟!!
- نعم.



- صاحب الأدب الصغير؟!
- والأدب الكبير!
- ناقل كليلة ودمنة عن بيدبا فيلسوف الهند؟!
- هو... هو... هو...!
- هل كان ذلك قبل إسلامه.. أو بعد إسلامه؟

ابن المقفع بلا دين :

- لم يكن ابن المقفع مسلماً.
- كان مجوسياً وأسلم؟
- لم يكن يؤمن بشيء... وقد أراد أن يكون ذا حظيرة
ن الدولة، فذهب إلى الخليفة وقال له أريد أن أشهر
إسلامي. ففرح الخليفة، وقال هذا نصر عظيم للإسلام ودعا
الناس إلى قصره في الصباح حتى يشهدوا إسلام ابن المقفع
المجوسي.. واستبق ابن المقفع ليتناول طعام العشاء معه. ولما
حضر الطعام لحظ الخليفة أن ابن المقفع يتلو صلاة المجوس
قبل أن يمد يده إلى الصحاف. فقال له : ألم تشهر
إسلامك؟ فقال ابن المقفع : لقد أمرتني أن أرجئ ذلك إلى

الصباح. فقال له الخليفة : ولماذا تصلى الآن صلاة المجوس ؟
فقال : لقد كرهت أن أبيت ليلتي من غير دين ! والحقيقة أن
ابن المقفع عاش عمره كله بلا دين .

وراح أبو نواس فيما يشبه الغيبوبة، ثم رفع رأسه وقال :

- فيم كنا نتحدث ؟

- كنت نتحدث عن الشعراء والأدباء . وكيف أنهم كانوا
زنادقة مثلك... وقد حدثني عن ابن المقفع ولم تحدثني عن
سواه .

- ألم أحدثك عن والبة ؟

- حدثني .

- ألاتعرف أنه كان أرق الشعراء ؟

- لا أعرف .

- ألم تعرف رأى عمارة بن حمزة في والبة ؟

- من يكون عمارة بن حمزة هذا ؟

- حاكم الأهواز في عام ١٥٨ .

- وما هو رأيه في والبة ؟

- لقد طلب إلى الخليفة المهدي أن يسمح لوالبة بأن يكون من جلسائه؛ فقال له المهدي: ولماذا يكون من جلسائك؟ فقال عمارة: إنه أرق الناس شعرًا. فقال الخليفة: أسمعنا شيئًا من شعره. فأسمعه أبياتًا قال فيها والبة إن من عادته أن يدب إلى جلسائه ويشب عليهم إذا غلبهم النوم! فضحك المهدي وقال: «أوتريد أن نكون من جلسائه على هذا الشرط؟»

واستطرد يقول: ألم تسمعوا بداود بن رزين، والحسين الضحاك الأشقر الخليج، والفضل الرقاشي، والحسين الخياط، وعنان جارية النطاف، وإسماعيل القراطيسي، ورزين الكاتب؟ هؤلاء جميعًا هبطوا في المجون واللهو والسزندقة إلى أسفل درك..

مباراة في المجون:

ثم قال:

- أردنا يومًا أن نجتمع في بيت واحد منا لتتقرب من الشيطان... واتفقنا على أن من يجيد توجيه الدعوة شعرًا، نجتمع عنده فقلت:

ألا قوموا إلى الكرخ إلى منزل خمار
وستان له نهر لدى نخل وأشجار
فإن أحببتموا لهواً أتيناكم بمزمار
وإن أحببتموا

ولعلك تذكر بقية الأبيات!

- أذكر أنك أحلتهم في النهاية على رية الدار
ومضى أبو نواس فقال: أما داود فأنشد:
قوموا لمنزل هو وظل بيت كنين
وقينة ذات دل وذات عقل رصين
تشدو بكل ظريف من محكم ابن رزين!

- هذا رجل مؤدب!

- لم يعجبني أدبه. فقلت أرد عليه:

قوموا إلى ثقاتي قوموا بنا.. وحياتي!
قوموا نلذ جميعاً بقول هاك وهاتي!
فإن أردتم فتاة أتيتكم بفتاة
وإن أردتم

ولعلك تعرف الباقي!

- أعرف أنك أحلت الإخوان في النهاية على شخصك

الكريم!! أما الحسين بن الضحاك الخليع فقال:

إلى الخليع فقوموا إلى شراب الخليع
إلى شراب لذيد وأكل جدى رضيع
..... مثال كل رضيع!

- يالخليع من رضيع!

ومضى أبو نواس يقول:

أما الرقاشي فقال:

لله در عقار حلت بيت الرقاشي
وقال عمرو الوراق:

عوجوا إلى بيت عمرو إلى سماع وخر
وقال الحسين الخياط:

قضت عنان علينا بأن تزور حسينا
وقالت عنان:

مهلاً أفديك مهلاً عنان أخرى وأولى

بأن ينال لديها
فإن عندي حراماً
وقال علي بن الخليل :

ألا قوموا جماعات
إلى صهباء كالمسك
وإن أحببتموا ...
- خيبة الله عليه ! ...

وقال إسماعيل القراطيسي :

ألا قوموا جماعات
فقد جاء لنا عمرو
وقينات من الحور
وقال رزين الكاتب :

ألا قوموا جماعات
فعندي من إذا غني
لعندي لا إلى غيري
تهم الأرض بالسيرا

ولما ذكر لنا رزين كل ما عنده من أسباب اللذات على
اختلافها.. قلنا له : اليوم يومك. فقم بنا، وصرنا إليه
جميعاً.

وهنا سألت أبا نواس :

- وبعد أن صرتم إليه ماذا حدث؟

- حدث لهم جميعًا ما رواه التاريخ عني وحدي!

فسأله :

- هل كان هذا المجون والتهتك، والفجور، والابتذال في

الكوفة وحدها؟

- كان في كل مكان.. في الكوفة.. في البصرة.. في

بغداد.. كان في الحانات.. في الأديرة.. في المساجد.. كان

في أكواخ الفقراء.. وقصور الأشراف.. كان في قصر

الخليفة..

فقلت له :

- لقد تشعب الحديث بنا.. كنت ستحدثني عن هريك

من الكوفة إلى البصرة.. وما نحن أولاء لا نزال في الكوفة.

- لقد تركت الكوفة ونحن الآن في البصرة!

- ولكنك لم تقل لي كيف تركت الكوفة؟

- بعد أن أمضيت ثلاثة أعوام في الكوفة شعرت بأن

شخصيتي تلاشت في شخصية والبة. وكرهت أن أظل تبيعاً له، فاعتزمت العودة إلى البصرة لأستأنف فيها حياة جديدة. وخشيت أن أفتح والبة بما اعتزمته فيحتجزني معه، فاستأذنته في السفر إلى البادية مع وفد من بني أسد فأذن لي. وقد ألفت في البادية سنة، تعلمت فيها كثيراً من غريب اللغة ثم عدت إلى البصرة.

وهناك عرفت خلفاً الأحمر وكان عالماً عظيماً، وجلست منه مجلس التلميح من أستاذه.

- هل كان خلف الأحمر مثل والبة؟

- كان شيئاً آخر.

- كيف كان؟

فقال أبو نواس:

- لقد طال الحديث.. أمهلني إلى غد..

كيف.. ومتى.. أصبح شاعراً؟

أبو نواس يتزوج

من هي زوجته.. ولماذا طلقها ليلة الزواج؟

قلت لأبي نواس : لقد سألتك عن أستاذك خلف الأحمر، وهل كان مثل أستاذك الأول والبة بن الحباب؟ وقلت لي إنه كان شيئاً آخر... فكيف كان؟

- ماذا تعنى بهذا السؤال؟

- أردت أن أعرف مدى زندقة خلف الأحمر، وقدرته على الفسق والمجون...

فقال أبو نواس : هل كل الناس زنادقة وفساق وأهل مجون...؟

- لم أقل ذلك ولكنك أنت الذي قلتة... فقد أكدت لي أن أهل عصرك كانوا جميعاً هكذا...

فقال : ألا تعرف أن لكل قاعدة استثناء... ؟

- نعم لكل قاعدة استثناء.. وشذوذا

فقال : لقد كان خلف استثناء من القاعدة، وشذوذاً فيها.. كان في مستهل حياته مولعاً باللهو البريء. وقد ركز لهوهُ في اللغة، والشعر. فكان ينسب إلى الشعراء الأقدمين ما لم يقولوه، ويخترق روايات لا أصل لها، وكان بارعاً في محاكاة فحول الشعراء... ثم أقلع عن هذا اللهو، ولما كبر كان مثال الجدد والرزاة... وكان ورعاً في أغلب أوقاته...

- كيف عرفته؟

فقال : عندما عدت إلى البصرة، كنت قد عقدت العزم، على أن أبدأ حياتي من جديد. فلا هو، ولا مجون ولكن توبة عن المعاصي، وتفرغ تام للعلم والجهد، وقد أفادتني رحلتي إلى البادية كثيراً وكنت خلال هذه الرحلة مثال الاستقامة، كنت في حالة ندم على ما فرط مني، وفي حالة تصميم على أن أنأى بنفسى عن مظان العبث والشبهات. وأن أعود إلى البصرة رجلاً فوق مستوى الظنون... فلم أكد أضع قلبي فوق أرض البصرة، حتى قصدت إلى أبي الحسن العطار السدي كنت

أعمل صبيًا في دكانه، وكان منى بمثابة الوالد البار، وكنت
ابنًا عاقًا... فقد تركته وهربت مع والبة، وكان ما كان.
ولقد تلقاني أبو الحسن بالترحيب ولما سألته أن يعفو عني..
قال إن عفوى دائمًا يسبق ذنبك! ودعاني إلى استئناف عملي
في دكانه فأخبرته بما اعتزمته من مواصلة الدرس، فسره ذلك،
وشجعني على أن أخصص كل وقتي للعلم ورأى أن أتتلمذ
على خلف الأحمر لغزارة علمه، وتبحره في الشعر واللغة،
والإلمام بأنساب العرب.. فأخذت برأيه، وقصدت إلى خلف
الأحمر في مسجد البصرة وقد أبدى إعجابيه بذلك، وسرعة
بديهي، ولم أعرض عليه شيئًا من الشعر الذي نظمته وأنا في
صحبة والبة. فقد كان خلف يحب جزالة اللفظ، وكان
شعري في ذلك الوقت سهلًا، رقيقًا، وكان كله عبثًا ومجونًا،
يعد أن لازمت خلفًا الأحمر، حوالى العام استأذنته في نظم
لشعر فقال لي: لا آذن لك إلا أن تحفظ ألف مقطوع
للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة... فغبت عنه فترة
طويلة، وجئته لأنشده ما حفظته. فسألني: كم حفظت؟
فقلت: ألف مقطوع. فقال: أنشدها. فأنشدها في عدة أيام.
وسألته أن يأذن لي في نظم الشعر... فقال: لا آذن لك

إلا أن تنسى هذه الأشعار كلها..

فقلت : هذا أمر يكاد يكون مستحيلًا، فقد أتقنت حفظها!! فقال : لا آذن لك حتى تنساها!

فذهبت إلى بعض الأديرة وخلوت بنفسى، بضعة شهور، استغرقت خلالها، في تأملاتي ونسيت كل شيء... نسيت الشكل والصورة، واللفظ. ولم يبق في خاطرى إلا الجوهر والمعنى، وجئت إلى خلف الأحمر وأخبرته أنى نسيت الألف مقطوع فسألنى هل نسيته كلها؟ فقلت : نسيته حتى كأنى لم أكن أحفظها قط. فقال : الآن.. انظم الشعرا

وقلت لأبى نواس ألا تذكر أول شعر نظمته عقب ذلك؟

فقال : لا أذكر... فقد كان ما نظمته إذ ذاك شعرًا سخيًا، لا دافع له ولا غرض، كان محاكاة للأشعار التى زعمت لخلف الأحمر أنى نسيته!

- كأنك لم تنساها؟!

- الحق أنى تناسيتها... وأظننى بعد ذلك قد نسيته

فعلًا!

- فى أى وقت كنت تنظم الشعر؟

فقال : لا أكاد أقول شعراً جيداً إلا إذا كانت نفسي راضية.

- هل كنت تختار مكاناً بذاته لنظم الشعر؟

- كنت أؤثر النظم في البساتين..

- ليلاً.. أو نهاراً؟

- لا يهمني الليل والنهار، ولكن يهمني أن أكون على

حال أرتضيها، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً

لا أرضى عنها!

- كيف كنت تنظم الشعر؟

- كنت أشعر في نظم القصيدة وأتركها أياماً. ثم

أراجعها فأححو كثيراً منها. ولا أبقى إلا على ما يروقني.

- ولكن ما تنظمه هو خواطر نفسك فكيف تمحو هذه

الخواطر؟!

- إن الخواطر تخطئ وتصيب وقد كنت أححو ما أراه

خطأ، وأثبت ما أراه صواباً.

- هل كنت سريعاً في النظم؟

- لم أكن سريعًا ولا بطيئًا. كنت بين السرعة والبطء...
كنت وسطًا.

- هل كنت تعنى بشعرك فى الخمر؟

- كل العناية!

- وشعرك فى المجون؟

- بعض العناية!

- وشعرك فى الملح؟

- كنت أنظمه بلا عناية!

واستطرد أبو نواس يقول:

- لقد مثلت فى ذلك مرة فقلت إذا أردت أن أجيد

قلت مثل قولى:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وإذا أردت العبث قلت مثل قولى:

طاب الهوى لعميده...

أما الذى أفنى فيه وحدى وكله جسد، فإذا وصفت

الخمر!

وقلت لأبي نواس : ولكن قصيدتك التي تقول فيها :
لا أذود الطير عن شجر.. هي قصيدة كلها ملح، وكنت قد
ذكرت لي أنك تنظم المديح بلا عناية!..

فقال : لقد قصدت الملح الذي لا يتجاوز طرف اللسان
إلى القلب أو العقل.. أما أن تمدح رجلاً تحبه، أو تؤمن به
فليس هذا مدحاً ولكنه شعر يرقى إلى شعر الخمريات والمجون
والحب والزندقة!

- وهل كنت تحب الخصيب حاكم مصر إلى درجة أن
تقول فيه مثل هذا الشعر؟

فقال :

- لم أقل هذا الشعر في الخصيب، ولكن قلت له في
العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور، ولقد أحببت
العباس حقاً.

- هل حفظت أشعاراً أخرى غير ما أوصاك خلف الأحمر
أن تحفظه؟

فقال : حفظت سبعمئة أرجوزة من أراجيز الشعراء.
وما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب، بينهن

الخنساء وليلى الأخيلىة، وليلى العامرية.. فما ظنك بالرجال؟

- كيف كان رأى معاصريك فى شعرك؟

فقال : كان بعضهم يحسدنى على مكانتى وذيوع اسمى، وإقبال جمهرة الناس على ترديد شعرى، وكان بعضهم الآخر يرانى أشعر الشعراء على الإطلاق.. وغيرهم اعترفوا بسمو مكانتى فى الشعر ولكنهم جبنوا عن الرواية عنى!

- هل تذكر أحداً من حاسديك؟

فقال : ولا أحد يذكرهم!

- والمعجبون بك هل تذكرهم؟

فقال : ألم يرو التاريخ أسماءهم؟

فقلت : روى التاريخ أن ابن عائشة سئل عن أشعر

المحدثين فقال الذى يقول :

كان ثيابه أطلعن من أزراره قرا

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وأنت صاحب هذه الأبيات، فأنت أشعر المحدثين فى رأى

ابن عائشة.

فقال أبو نواس : وكان الأصمعي يعجب بشعري ويسميني

الشاطر. وهل سمعت عن شاعر اسمه كلثوم بن عمرو؟

قلت : أنا شخصياً لم أسمع عنه.

فقال : كان يلقب بالعتاب!

فقلت : سمعت عنه... كان شاعراً متحيزاً للبرامكة.

أليس كذلك؟

فقال : كان كذلك في أول الأمر ثم ساءت الحال بينه

وبين البرامكة.

- لماذا سألتني عن العتاب هذا؟

فقال : كان شاعراً مطبوعاً رقيقاً وكان يسميني الخبيث.

ويقول : لو أدرك الخبيث الجاهلية لما تفوق عليه أحد!

قلت : إن التاريخ حدثنا عن إعجاب أبي عبيدة بشعرك.

كما حدثنا أن أبا عمر الشيباني العالم النحوي كان يقول :

أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى ، والأخطل ،

وأبو نواس.

وضحك أبو نواس وقال :

- أعرف أبا عمر الشيباني هذا وكنت لا أستحسن

آراءه... فقد كان يعجب بالشكل. وأنا لا أحب الشكل
إلا في الوجه والبدن... أما الأدب فإن يعجبني فيه الشكل
والجوهر معاً!

- ولكنه لم يخطئ في حقك.

فقال: بل أخطأ إذ جعلني في الخمريات واحداً من
ثلاثة!

- ما مكانك في شعر الخمريات إذن؟

فقال: واحد فقط... وقد سبق أن سألتني سليمان
ابن أبي سهل: ما الذي أستجیده من شعري؟ فقلت له
أشعاري في الخمر لم يقل أحد مثلها.. وأشعاري في الغزل
فوق أشعار الناس. وهما أجود شعري!
واستطرد أبو نواس يقول:

- ألا تعرف الثوري؟

ولما بدا له أن لا أعرفه مضى فقال: كان من الأئمة
الأعلام في الحديث وأراد بعض الحاقدين أن ينالوا مني في
مجلسه فقال الثوري: كيف تنالون من رجل يقول مادحاً:
يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار!

ويقول مادحًا أيضًا :

لكن يسير الجود حيث يسير فما فاته جود ولا حل دونه

ويقول في الخمر :

فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم!

وكان يقول : والله إن أبا نواس لحق من كانوا قبله،
وفات من جاءوا بعده.

قلت : ولقد نقل التاريخ إلينا أن ابن الأعرابي امتحن
جلساءه في أشعر الناس فاستشهد كل منهم بيت من شعرك.
فقال ضاحكًا : يظهر أن ابن الأعرابي كان لا يجالس
إلا من يفهمون... وسألني هل تذكر شيئًا مما استجادوه من
شعري؟

قلت : أذكر هذا البيت في وصف كأس الخمر، وقد
تصاعد حبيها من خلالها :

كان كبرى وصغرى من فقاقتها حصباء در على أرض من الذهب

فقال : ألم يحدثكم التاريخ عن رأى أبي العتاهية في
شعري؟ لقد سئل من أشعر الناس؟ فقال : جاهليها؟ أو

إسلاميها؟ أو مولدها؟ فقيل له : نريد أشعرهم جميعًا. فقال
أشعرهم من يقول :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فانت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يومًا بمدحة لغيرك إنسانًا.. فانت الذي نعتي

والذي يقول في الزهد :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
وأنا صاحب هذا الشعر كما تعلم.. أم تراك لا تعلم؟
قلت : أعلم.

ورويت له ما ذكره الجاحظ من أنه سمع ابن النظام ينشد
لأبي نواس شعرًا في الخمر ويقول : كأن هذا الفتى تجمع له
الكلام فاختر أحسنه !

فقال أبو نواس : هذا صحيح.

وسأله : أيها الصحيح رواية الجاحظ أم رأى ابن النظام.

فقال ضاحكا : كلاهما صحيح !

قلت : ولقد قال بعض النقاد إن المعاني حبست عليك

وحدك. فأخذت منها حاجتك وفرقت الباقي على الناس !

وهنا غمر البشر وجه أبي نواس وبدا كما لو كان شبابه
قد عاد إليه، وقال : نسيت أن أذكر لك أن أبا العتاهية كان
يقول :

سبقني أبو نواس إلى أبيات وددت أن سبقته إليها بكل
ما قلته فإنه أشعر الناس فيها... ومن هذه الأبيات قولي :
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر!!

وقولي :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لييب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

وسألت أبا نواس : كيف عرفت أبا العتاهية؟!

فقال : عرفته وكنا في سن الكهولة، اجتمعنا يوماً عند
إسحاق بن إبراهيم بن ميمون وكلاتنا لا يعرف الآخر. فلما
عرفني أبو العتاهية انتقل إلى مسكاف، وصافحني، وجلس
بجوارى، واستنشدني الشعر، فأخذت أنشد أشعاراً لي سخيفة
هازلة، فأنشدني شعراً له وقلت له : هذا قول تمتع. فقال :
هو خير مما أنشدتني اليوم.. وعجب من أن أحفظ شعري
السخيف ولا أذكر شيئاً من شعري الجيد ثم سألني عن

قصيدتي في الفضل بن الربيع التي قلتها مستشفعاً به للخروج
من السجن، فأنشدتها له وفيها أقول :

قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفاً الله

فقال أبو العتاهية : ما عليك ألا تقول بعد هذا شيئاً ..

قد كنت والله أحب أن أسبقك إليه !

وقلت لأبي نواس : أولم يكن لك في البصرة غرام طبيعي

أو شاذ؟!

فقال : دعنا من هذا الحديث.

قلت : لقد علمنا أنك أحببت عنان.

فقال : بل جنتت بها ! ولكني لا أريد أن أتكلم عنها ..

ألا يهمنك أن تعرف كيف ذهبت إلى بغداد .. كيف عرفت

هارون الرشيد؟! كيف جذبتني دار السلام إليها بأضوائها،

وخمرها، وغلماها وقياسانها وعلماؤها وشعرائها .. بملحديها

ومؤمنيها؟

قلت : إن هذا يهمني وأريد أن تحدثني عنه .. ولكن

هناك شيئاً هاماً يجب أن نزيح عنه الستار .. وهو حبك لعنان

الجارية، الشاعرة الساحرة!

فقال : إن غرامى فى البصرة ليس له أول ولا آخر..
وأخشى إذا تحدثنا عن الغرام أن تضطرنى للحديث عن
الزواج !

فسألته : هل تزوجت ؟

فقال : إما أن نتحدث اليوم عن الحب أو نتحدث عن
الزواج ؟

فقلت : بل حدثنى عن الزواج !

فقال : عندما عدت إلى البصرة، تجمع أهلى حولى،
وأسدوا لى النصيحة، أن أحششم، وأصطنع الوقار، وقلت لهم
إن هذا ما صممت العزم عليه. فقالوا إن الزواج سيساعدك
على تنفيذ عزمك وسألونى : ماذا لو تزوجت امرأة من أهل
بيتك حتى تقلع عن بعض ما أنت فيه. فعارضت فى الزواج
ولكنهم ما زالوا بى حتى زوجونى جارية من أهل بيتى وهم
يعتقدون أنها جميلة، وربما كانت كذلك.

ولكنى لم أكد أدخل بها، ليلة الزواج حتى أعرضت
عنها، وفررت من البيت واجتمعت بأصدقائى...

قلت : أصدقاء أم صديقات ؟

فقال : أصدقاء . رجال وأشباه رجال !
ولقد أرسلت إليها أبياتاً أعلنت فيها طلاقى منها . . قلت :

.....
تحملي طالقة واذهي !

مرى فكم مثلك من حرة

لا أدخل الجحريدى طائعا

وأخشى من الحية والعقرب !
ولم أرها بعد ذلك أبداً . .

قلت : هل تزوجت مرة أخرى ؟

- كلا !

قلت : ولكنك أشرت فى شعرك إلى أن لك أولاداً !

- لا أظن !

قلت : ألم تقل :

ألا إن بنتى بنت من لم ير ابنة ولا ابناً سواها قد تبروتؤنس ؟

فقال : هذا حديث يطول شرحه . . وكنت أود أن تنتقل

فوراً إلى بغداد . . دار السلام . معقل الخلافة . . مدينة العلم

واللهو . .

قلت : سنتقل إليها حتماً . . ولكن بعد أن نعرف من هم

أولادك، وكيف كان حبك لعنان، ومجونها معك، وهجوها
لك !!

فقال : ليس اليوم ولا غداً.

قلت : بل غداً...

فقال : إن شاء الله !

عنان التي أحبها أبو نواس!!

أبناؤه.. ونساؤه.. وبنات أفكاره؟

قلت لأبي نواس: ستحدثني اليوم عن أبنائك.. فقاطعني
قائلًا: أي أبناء؟

- ألم تنجب أبناء؟

فقال: لقد تزوجت مرة واحدة، وطلقت زوجتي ليلة
الزواج.. طلقتها قبل أن أدخل بها. فلم أنجب منها بنات
ولا بنين.

- ألم تعرف نساء عن غير طريق الزواج؟

- عرف كثيرات!

- لعلك أنجبت منهن أولادًا.

- لا أظن!

- ولكنك ذكرت في شعرك أسماء أولادك..

فقال: وما هو هذا الشعر؟

- ألم تقل وأنت في ضيافة الخنصيب مجنونا :

«لباب» تكبرى فوق الجوارى فإن أباك أعتبه الزمان؟

وفى ديوان شعرك رثاء لولدك الذى مات : «على حين
حانت كبرة بوشة»

وفى ديوانك أيضاً أبيات عن بتك «بر» أو «برة» وقد
طلبت إليها أن تبرك حياً وميتاً.

ولما أطلق الأمين سراحك من السجن الذى أودعك فيه
هارون الرشيد قلت : «لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى
ولد» ! فمن هى بتك «لباب» وبتك «برة» ومن هو ولدك
الذى مات بعد ما بلغت المشيب . . ومن هو ولدك الذى
نظرت إليه بعدما تفتحت لك أبواب السجن؟

فقال : أخشى أن أفجعك إذا قلت الحقيقة !

- أفجعنى . . وقل الحقيقة !

فقال : الحقيقة أنى لم أنجب أبناء . .

- فماذا تعنى بذكر الولد فى معرض الحنين، وفى معرض

الرثاء

فقال : ربما كان ذلك خيالاً.. أو تشبيهاً.. أو محاكاة!

- وبتك «لباب».. وبتك «برة».. هل هما أيضاً من

بنات أفكارك؟

فقال : هل تريد أن أفجعك مرة أخرى؟

- افجعني!

فقال : صدقني إذا قلت لك إنى لم أسلك طريقاً يؤدي

إلى أن أنجب أولاداً..

قلت : تعنى أنك لم تسلك طريق الحلال ؟

فقال : ولا طريق الحرام!

- والنساء اللاتي عرفتهن؟

فقال : لقد عاملتهن كما لو كن غير نساء!

- ماذا تعنى؟

فقال : أنت تعلم ماذا أعنى!

- ولكنى أريدك على أن تفصح... فدع الخجل وتكلم

بصراحة!

فقال : إن من يعمل بصراحة، لا ينجله أن يتكلم

بصراحة. ولكن التلميح كثيرًا ما يغنى عن التصريح.
والتلميح في هذا الموطن بالذات يغنى ولا شك عن التصريح
- لماذا إذن أكثر من الإشارة في شعرك إلى أن لك
بنات وبنين؟!

فقال: بعض هذه الإشارات من قبيل المباهاة أو استدرار
العطف، مثل إشارتي في قصيدتي التي قلتها بعدما أطلق
الأمين سراحى من السجن الذى أودعنى فيه أبوه هارون
الرشيد.. فقد قلت:

إن أتيتكمو من القبر والناس مجتمعون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى «ولد» ولا وقر

فقد تشفعت بالفضل بن الربيع لدى الأمين كى يخرجنى
من السجن.. وأردت أن يشعر الأمين بأنه أطلق سراح رجل
له أولاد يحن إليهم ويحنون إليه. وكان هذا شيئًا مألوفًا
عندنا: مثل التفاخر بالآباء والأجداد. وما أكثر الذين تباهوا
بآبائهم وهم أنفسهم لا يعلمون شيئًا عن هؤلاء الآباء!
- وماذا عنيت بالأبيات التي تمثلت فيها أن بينك وبين
الدهر ثأرًا لوفاة ابنك «على حين حانت كبرة ومشيب»؟

فقال : هذه أبيات رثيت فيها صديقًا يصغرن سنًا. فهو
في منزلة ولدى، لو أن لي ولدًا.
- وأبياتك في «برة»؟

فقال : لقد نسيت المناسبة التي قلت فيها هذه الأبيات..
ولعلها قيلت على لسان أحد من أصدقائي. فقد كنا نقول
الشعر على السنة غيرنا.

- ومن «لباب» التي تكلمت عنها في مصر؟
فابتسم وقال : هل تريد أن أفجعك مرة ثالثة؟
فقلت : افجعني.. ثالثة.. ورابعة.. وعاشرة!
فقال : أنت تعلم أني زرت مصر، قاصدًا أميرها
الخصيب.

- في أي سنة تمت هذه الزيارة فقال حوالي ١٨٦.
وأطرق طويلًا.. فسألته : فيم تفكر؟
فقال : إن أسئلتك الاعتراضية أنستني ما كنا نتحدث
فيه!

- كنا نتحدث عن زيارة مصر لمناسبة ابتك المزعومة
«لباب»!

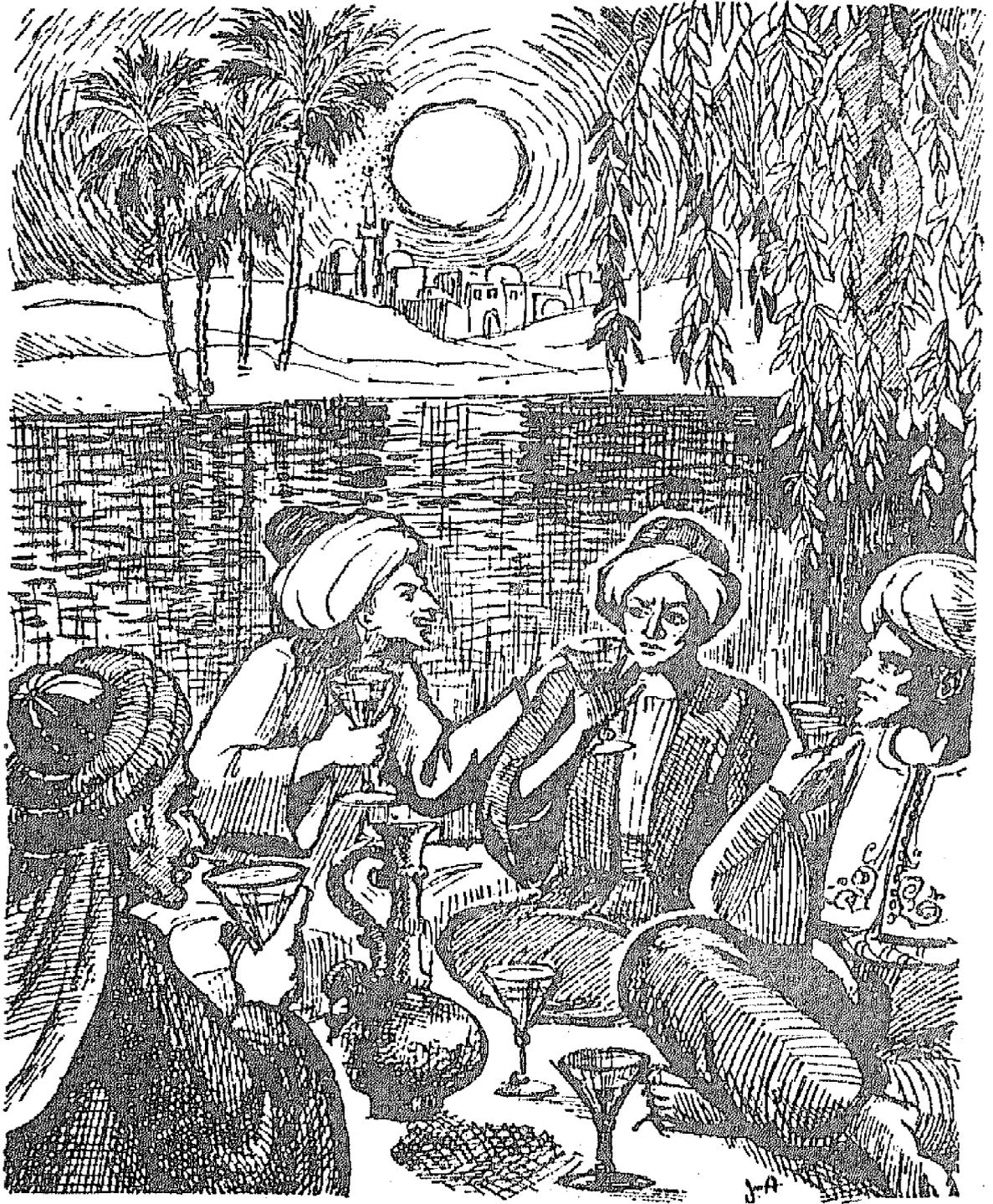
فقال : لما زرت مصر وقابلني أميرها، وأنشدت بين يديه قصائدي. تجمع الشعراء حولي. بعضهم أبدى إعجابيه بى. وبعضهم أعلن تيرمه بى، وبعضهم أخفى كراهيته لى.. ولكنهم جميعاً كانوا يتوددون إلى وخاصة بعد أن اشترطت على الأمير أن يمنحهم الجوائز على ما لم يسمعه من أشعارهم!

- لقد سبق أن حدثتني عن هذه المسألة.

فقال : لاتعترضني حتى أستطيع مواصلة الحديث.

- لن أعترضك!

فقال : أردت أن أنقل إلى مصر جو بغداد، والبصرة، والكوفة.. أردت أن أجعل من مصر مسرحاً للفسوق، والهجون، والزندقة، وخيل لى أنه من اليسير على مثلى أن يحظى بما يشاء من هو برىء وغير برىء... فأنفقت المال على من حولي من الشعراء والأدباء.. أنفقته بسخاء وجنون! طلبت الخمر فوجدتها.. وجدتها معتقة.. وطازجة، وجدتها عصير بلح، ونبيداً.. طلبت النساء فوجدتهن.. ثم تجرات وبحث عن الغلمان... وذهبت مع جماعة من أهل مصر إلى مكان ناء على شاطئ النيل، بالقرب من الفسطاط أملاً أن أجد هناك بغيتي وإذا ثلثة من الشباب الحلو السريق البض..



قد أعدوا لنا بساط الشراب.. على حافة الماء بين مروج
النخيل والشجر، في ضوء القمر.. في ساعة السحرا وقبل
أن تلعب بي الخمر كنت قد لعبت بها، وهممت بمعانقة أحد
الشبان وإذا هم جميعاً يمسون بتلابيبي ويترحونني أرضاً،
وينهالون على جسمي ضرباً بالسياط، والعصى، ويتركونني ملق
في الطريق بين الحياة والموت... ومحت عمّن كانوا معي فإذا
هم قد تفرقوا جميعاً، ولما أصبح الصبح، أخذت أجمع شتات
نفسي، وشتات جسمي، وسرت على قلبي، حتى وجدت
مركباً عدت فيه إلى منية الخصيب، وهناك أقت في رحاب
الخصيب بقية أيام الزيارة، ولم أكشفه بما حدث لي، ولما
تركت مصر، أخذت معي قلبي عليها، وعلى أهلها،
فزعمت أني أحببت فيها وعاشرت نساءها، وأنجبت منهن بنات
كثيرات.. وجعلت من بينهن «لباب» هذه التي وردت في
بعض أشعاري!

وابتسم وقال: لست الآن حاقداً على مصر! ولهذا قلت
لك الحقيقة!

قلت: لقد وعدتني أن نذهب إلى بغداد.. ولكنني طلبت

إليك أن تحدثني أولاً عن زواجك وأولادك وعن علاقتك
بعنان.. ولقد حدثتني عن الزواج والأولاد.. وبق أن تحدثني
عن علاقتك بعنان!

فقال: هل يعنيك أن أحدثك عن عنان!
يعينني ذلك ويسرني... ولاشك أن الحديث عن عنان
يعيد إليك شبابك.

فقال: لعنة الله عليها..

- أتلعنها بعد ما أحببتها!

فقال: لأنى أحببتها.. ألعنها!

- ألم تكن تحبك؟

فقال: كانت بذئبة، هجاءة، سليطة اللسان.. وقد
عرفتها، وهى جارية من جوارى «الناطقى» ونمت المودة بينها
وبينى، فقد كانت ذكية، رشيقة، جذابة. وكانت تقول
الشعر، وتروى كثيراً من أشعار القدامى والمحدثين، ويقدر ما
أشادت به، وهتفت بذكرى، قبل أن نلتقى.. هاجتني،
وهجتني، وأصبحت سوط عذاب يلهب سمعتي، ويمزق
عرضي، وقد ظلت العلاقة قائمة بيننا فترة طويلة، والحق أنى

ثم أضيق بسفاهتها إلا عندما تناولت أمي بلسانها الوقح
البذيء.

حدث ذلك يوم أن سلطت سفهاء الكرخ والعيارين أن
يمشوا إلى في جمع كبير وينشدوا أبياتاً سخيفة قالت فيها:
أبو النواس اليماني وأمه جليان!
إلى آخر ما قالت.

- من هم العيaron هؤلاء؟

فقال: العيaron غلمان لا عمل لهم إلا السب والشتم
وقد أفهمتهم أن أمي كانت تجمع أولاد الزنى في بيتها
وتربيم، لغرض في نفسها! وشاعت هذه القصة، وتعقبتي في
بغداد...

- أيتها التي تعقبتك إلى بغداد.. القصة أم عنان؟

فقال: كلتاهما.. فإن عنان أيضاً قد جاءت بغداد، ولما
عرف الفضل بن الربيع أنها أشاعت عني ما أشاعت، قال
لي: إذا أخجلتها أمامنا فلك عندي ما تريد.. واجتمعنا في
مجلس وحاولت أن أخجلها بذكر أشياء يندى لها الجبين..
ولكنها كانت امرأة وقاحاً فقد أخجلت الرجال ولم تخجل..

أقول لها أريدك يا عنان.

فتقول: وأين ذهبت أمك.. إنها بك أولى!

- هذه المناوشات جرت بينك وبينها أمام الفضل بن

الربيع؟!

فقال: وأمام الرشيد أيضًا..

- هارون الرشيد الخليفة؟!

فقال: نعم!

- ولو تركتني من حديث عنان لنهبتنا معًا إلى بغداد،

وعشنا في قصر الخليفة وقصور البرامكة، وشهدنا المعركة

الكبرى بين حزب العزب وحزب الفرس، ونكبة البرامكة..

وأحاديث الهوى، والعشق والغرام.. ولكنك تأبى إلا أن

نتحدث عن عنان!

- دعنا من عنان ولنذهب الآن إلى بغداد.

فقال: الآن لا أستطيع... غدًا نذهب إلى بغداد!

المدينة التي لا يموت فيها خليفة أبدًا

أولى ليالي أبو نواس في بغداد..

قال أبو نواس : لقد اتفقنا على أن نذهب إلى مدينة السلام.. أليس كذلك؟

- اتفقنا على الذهاب إلى بغداد.

فقال : إن بغداد هي دار السلام. هكذا سماها من

بناها!

- ومن الذي بناها؟

فقال : الخليفة أبو جعفر المنصور.

- في أي سنة كان ذلك؟

فقال : بناها في سنة ١٤٥ أو نحو ذلك.

- كأنك أكبر منها سنًا!

فقال : هي أقدم مني مولدًا.

- ولماذا سماها المنصور مدينة السلام، وقد كان عهد

خلافته، محفوفًا بالغدر والختل وسفك الدماء؟

فقال : لقد سماها الفرس بغداد، وقيل في تعليل ذلك أن أمير المشرق أهدى إلى كسرى ملك الفرس عبيدًا وخصيائنًا، فأقطعه كسرى أرضًا وسماها بغداد ومعناها «عطية الصنم» أي هدية كسرى المعبود.. إذ أن «بغ» بالفارسية صنم و«داد» عطية. ومن أجل هذا كان الفقهاء يكرهون اسم بغداد فينطقونها بغدان.. وبغذاذ.. إلى أن جاء أبو جعفر المنصور، وأنشأ فيها حاضرة الخلافة، فسماها مدينة السلام. وقد أحضر لها المهندسين وأهل المعرفة بالبناء وتوزيع المساحات وتقسيم الأرض، وعصور لهم صورة المدينة في نفسه، لينقلوها على الطبيعة.. ثم أحضر الصناع والنجارين، والحفارين، والحدادين، والفعلة، وأجرى عليهم الأرزاق.. وكتب إلى كل بلد أن يرسل إليه من يفهمون فيه أمور البناء، ولم يبدأ العمل في إنشاء المدينة حتى تكامل عند الخليفة من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ثم اختطت المدينة، وجعلها مدورة، ويقال إنه لا يوجد في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها!

- وهل كان في بلاد الخلافة في ذلك العهد، أهل معرفة

بالبناء؟

فقال : إن الخلافة في ذلك العهد كانت مملكة يمتد سلطانها إلى مصر والشام غربًا، وإلى الهند والصين شرقًا. وكان يخضع لنفوذها بلاد لاحصر لها في الشمال والجنوب. ومن هذه البلاد جميعًا، أي من الدنيا كلها. . جاء أهل المعرفة بالبناء فكأنما اشترك في بناء بغداد كل أصحاب المعرفة والحلق والمهارة. . ولهذا كانت بغداد للناس جميعًا. . فيها العرب والترك والفرس والهنود. . فيها أبناء موسى وعيسى ومحمد. . ومن على دين الجوس. . ومن ليس لهم دين. . فيها سلالة زرادشت وبوذا وكونفوشيوس. . فيها حضارات مصر، والهند والصين. . فيها صراع مستعر بين العقيدة والفكر. . بين الفلسفة والتصوف. . بين الاستبداد والحرية. . بين الفوضى والقانون. . بين القيود والأيدى. . بين السياط والظهور. . بين الشعراء والشعراء. . والعلماء والعلماء. . بين المتأسكين والمنحليين. . بين المؤمنين بالله والمؤمنين بالشیطان. . والكافرين بالله والشیطان معًا !

ومضى أبو نواس يقول : هل تعلم لماذا بنى أبو جعفر هذه

المدينة ؟

- يسرف أن أعلم. .

فقال : لقد خشى على حياته من الهاشميين، فأراد أن يجعل لخلافته مقراً لا يصل إليه العدو، وقد استشار المنجمين فاختر له أحدهم مكان بغداد، واسم هذا المنجم «نوبخت» وقد جعل للمدينة أربعة أبواب فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة... وإذا جاء أحد من المغرب دخل من باب الشام.. وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسطة اليمامة والبحرين دخل من باب البصرة.. وإذا جاء أحد من المشرق دخل من باب خراسان.. وكان على جميع أبواب المدينة عسكر كثير.. وحراس شداد. وأحيطت المدينة كلها بالأسوار.. وشقت فيها الخنادق وكان باب قصر الخليفة مقابلاً لباب خراسان. وقد بنيت على كل باب من أبواب المدينة قبة عالية.. وبين كل بابين ثمانية وعشرون برجاً!

ومن أين جاءت فكرة إقامة أبواب للمدينة... هل جاءت من المهندسين أو جاءت من المنجمين؟

فقال : أعتقد أن الفكرة جاءت من المنجمين.. فقد كان أبو جعفر يؤمن بالتنجيم والخرافات، والأساطير والأحلام. : كان يروى عن أمه أنها لما ولدته أحست أن أسداً خرج منها

وهو يزأرا! وكان يروى أيضًا أن النبي محمدًا عليه السلام كان قد قال لأمه إنك حامل بغلام.. فإذا وضعتني فأتيني به. فلما وضعتني أتت به رسول الله فأذن في أذنه اليمنى وهمس في أذنه اليسرى. ثم قال لها: اذهبي بأبي الخلفاء.. فلما علم العباس أبو جعفر بذلك.. أتى رسول الله فأجلسه الرسول عن يمينه وقال: «هذا عمي فمن شاء فليباه بعمه!» ثم قال للعباس إن الخلافة لك ولولدك. منهم السفاح.. ومنهم المنصور ومنهم المهدي!

- وهل صدقت هذه الروايات؟

فقال: ليست هذه كل روايات أبي جعفر عن نفسه.. فقد كان يروى أنه رأى النبي في المنام وأنه أوصاه بأمرته وقال له: «خذها إليك يا أبا الخلفاء إلى يوم القيامة!» وقد أمر بكتابة هذه الرؤيا في ألواح الذهب، وعلقت الألواح في أعناق الصبيان!

- وهل كان يعتقد أنه سيظل خليفة إلى يوم القيامة؟!

فقال: نعم؟

- وهل كانت رعيته تعتقد ذلك؟!

فقال : صدق الناس ذلك عندما كانوا أطفالاً . . ثم أصبحوا عقلاء !

واستطرد أبو نواس يقول :

لقد كان أبو جعفر يؤمن بأنه سيشهد بنفسه يوم القيامة . . ولما انتهى من بناء مدينة السلام دعا إليه بعض المنجمين وقال لأحدهم خذ الطالع، فنظر المنجم في طالع الخليفة وقال له :

- إن النجوم يا أمير المؤمنين تدل على طول زمان المدينة، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها.

ثم توقف المنجم عن الكلام وصوب عينيه في أمير المؤمنين وقال له : أبشرك - أكرمك الله - بعلامة أخرى من علامات النجوم وهي أنه لا يموت في هذه المدينة خليفة أبداً؟

- وماذا صنع الخليفة للمنجم؟ ألم يأخذ عنقه جزاء له على استغفاله أمير المؤمنين، وخليفة النبي، وابن أخى رسول الله؟

فقال أبو نواس :

لقد ابتسم الخليفة للمنجم وقال : الحمد لله . . ذلك

فضل الله يؤتیه من یشاء والله ذو الفضل العظیم!

وأین مات أبو جعفر؟

فقال : ... لم یمت فی بغداد خليفة منذ بنیت إلا الخليفة الأمين.. أما أبو جعفر المنصور فقد مات وهو فی الحج، بعدما دخل الحرم..

- لقد تولى المهدي الخلافة بعد المنصور فهل مات فی الحج أيضاً؟

فقال : مات المهدي فی بلدة اسمها «ماسيدان».

- والهادي أين مات؟

فقال : مات الهادي فی بلدة «عيساباذ».

- وهارون الرشيد؟

فقال : مات هارون الرشيد فی بلدة «طوس».

- إذن صدق المنجمون..

فضحك أبو نواس وقال : بل كذب المنجمون ولو

صدقوا.. كما قال محمد عليه السلام.. فما حدث ليس إلا

مصادفات، ومن یدری لعل كثيرين من الخلفاء ممن عاشوا

بعدي قد ماتوا وهم فی بغداد.

- لقد حدثنا الخطيب البغدادي مثل هذا الحديث وقال إن الخليفة المأمون مات بعيداً عن بغداد، وإن المعتصم مات في بلدة «سر من رأى»، وكل من ولي الخلافة عقبه ماتوا بعيداً عن بغداد ما عدا المعتد والمعتضد والمكتفي فإنهم ماتوا في قصور بغداد!

فقال أبو نواس : إن من يتأمل في الطريقة التي بنى بها أبو جعفر مدينة بغداد يعتقد أنه أراد أن يحصن نفسه من أعدائه، بل من الموت نفسه.. فقد جعل لها من الشرق والغرب والشمال والجنوب أبواباً..

- لقد حدثني عن هذه الأبواب!

فقال : ولكني لم أحدثك عن متانتها، وطريقة صنعها. كان لكل باب منها بابان، باب دونه باب.. وبين البابين دهليز متين ورجبة واسعة.

- هذا تفصيل لا جدوى منه!

فقال : هل تعرف من أين جاء بهذه الأبواب؟ لقد جاء بها من بلدة واسط، وقيل لنا إنها أبواب الحجاج، وإن الحجاج كان قد وجدها على مدينة بناها النبي سليمان بن داود

وكانت تعرف باسم «زندورد» وعدد هذه الأبواب خمسة . . .
أما باب خراسان فجاء به من الشام وهو من صنع
الفراعنة !

وقد جرى بالبواب المؤدى إلى الكوفة من الكوفة نفسها . .
وأضعف الأبواب كان الباب المؤدى إلى الشام وقد صنعه
أبو جعفر بوساطة عماله .

- وكيف كان قصر الخليفة ؟

فقال : كان فخيمًا، ضخمًا، فسيح الأرجاء، شامخ البناء،
وكان في وسط القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعًا، وعرضه
عشرون ذراعًا وفوقه قبة، على رأسها تمثال فارس يمتطيه فارس
في يده رمح . . . وكان ارتفاع القبة ثمانين ذراعًا، فكان الناس
يرونها من جميع أطراف بغداد . . وكان هذا التمثال يتحرك
والفارس فوقه، والرمح في يد الفارس . . كلما وقع حادث في
جهة من الجهات فيعلم الخليفة أن حادثًا وقع قبل أن تأتيه
التفصيلات !

وكان مجلس المنصور يتعقد على القباب المنصورية فوق
أبواب المدينة . . وكل قبة منها مزخرفة عالية ذاهبة في السماء .

- وأين كان موقع القصر؟

فقال : كان بالقرب من نهر دجلة، وقد سماه قصر

الخلد، تشبيهاً له بجنة الخلد!

وقد فرش بالديباج والحرير وصنعت أرضه وجدرانه من

العاج والمرمر والرخام والأخشاب الغالية. وكانت حماماته آية

في الفخامة والرواء. وقد زينت مداخل القصر، وأبهاؤه،

بالتماثيل، والتهاويل، وفرشت بالسجاد المجلوب من فارس!

وحدث أن زارت بغداد وفود من ملوك السروم، ونزلوا

ضيوفاً على الخليفة في قصره، وأبدوا إعجابهم بما رأوا من

مظاهر العظمة والفخامة، ولكن أحدهم قال للخليفة: إنك

بنيت بناء لم يبنه أحد من قبلك.. غير أن فيه ثلاثة

عيوب.. بعده عن الماء ولا بد للناس من ماء لشفاهم..

وليس فيه بستان والعين تشتاق إلى الخضرة.. ووجود رعيتك

معك في بناء واحد بسبب هذه الأسواق الداخلة فيه، وإذا

كانت الرعية مع الملك فقد فشت أسراره!

فقال الخليفة: أما العيب الأول فحسبنا من الماء ما بل

شفاهنا!.. وأما العيب الثاني فإننا لم نخلق للهو واللعب..

وأما العيب الثالث فليس عيباً لأنه لا يوجد سرّ دون رعيّتي !
- لقد كان خليفة شعبياً إذن !

فقال أبو النّوّاس : كلاً.. ولقد قال هذا الكلام من باب
المكابرة، فلم تكّد الوفود تبارح بغداد حتى أمر بمد قنّاتين من
دجلة إلى القصر، ونقل الأسواق إلى بلدة السكرخ وغرس
البساتين حول قصره..

ومضى يقول : هذا القصر العظيم.. لم أره في عهد
المنصور بطبيعة الحال، وكل ما قلته لك ليس إلا حكايات
سمعتها من الرواة. وقد ظل قصر المنصور في بغداد معقلاً
للخلافة.. وجدّت بعده قصور أكثر عظمة وفخامة، كانت
كلها لهارون الرشيد والبرامكة.. وفي عصر هارون الرشيد
ذهبت إلى بغداد، وكانت تموج بالدسائس والفتن السياسية،
كان فيها حزبان : حزب العرب ويتزعمه الفضل بن الربيع
وتسنده داخل القصر زبيدة زوجة هارون الرشيد.. أما الحزب
الأخر فهو حزب البرامكة، وكانوا حاكّمين بأمرهم.. كانوا
يحكمون الرعيّة ويحكمون الخليفة، كانوا أقوياء، رأسهم الكبير
شيخ حنكته التجارب والعلوم وهو يحيى بن البرمكي، وولده

جعفر وخالد تقاسما الهيل والهيلمان والقوة والسطوة وكانوا
يعاملون هارون الرشيد كما لو كان طفلاً.. وفي الحق أنه كان
طفلاً له شارب ولحية وعمامة وسيف.. كانوا هم وحزب
العرب بزعمامة ابن الربيع وزبيدة يتقاذفونه بالأقدام..

- كان كرة ١؟

فقال : الكرة تتقاذفها الأيدي.

- توجد في أيامنا رياضة تسمى كرة القدم.

فابتسم وقال : كان هارون بين حزب العرب وحزب
الفرس فعلاً.. كرة القدم!

كان همه أن يشرب ليلهو.. ويلهو ليشرب.. ويجمع
الشعراء والفساق حوله ليعرف الدنيا.. ويجمع الفقهاء والعلماء
ليدخلوه الجنة!

ولما وصلت إلى بغداد كانت الفتنة قائمة على قدم وساق،
ولكني كنت أريد أن أصل إلى الخليفة.. أريد جوائزه
وعطاياه.. أريد ذهبه لأنفقه على لذق ومتعتي.. وكان أمامي
طريقان.. طريق الفضل بن الربيع ولكنه طريق شائك،
وطريق البرامكة وهو طريق مزدحم بالرائحين والغادين
والواقفين والمنتظرين.

وهدتني الفطنة إلى أن أبعد عن البيئة السياسية حتى أتبين الأمور، فلم أكد أصل إلى بغداد حتى التقيت بأصدقائي من الشعراء والمجان والشبان وكنت قد عرفت بعضهم في البصرة، وعرفت بعضهم الآخر في الكوفة، وكانت جوارى الخليفة يهين من قصره، ويختلطن بصديقاتهن من جوارى السراة والأشراف والأمراء، وقد استطعت منذ الليلة الأولى أن أندمج في هذا الجحوظ العابق بأنفاس اللدة، والمجون، والشراب، والدخان..

وقد أمضيت أول ليلة في حانة ضمت عنان لعنة الله عليها... ومطيع بن إياس وحامداً وكثيرين من شباب بغداد بينهم النصراني والمسلم واليهودي والمجوسى، وكانت هذه الحانة على شاطئ دجلة.. وقد فرشت مداخلها بأغصان الورود والريحان وألياف النخيل وأعواد الكروم..

ووقفت أواني الخمر الضخمة الكبيرة على أبوابها كما لو كانت حراساً! وتدللت منها وحوها عناقيد العنب.. والنهر من جانب.. والبستان من جانب.. فعن اليمين جداول منسوقة.. وعن الشمال حدائق وكروم!

وقد نخصتنا صاحبة الحانة بمسكان جميل هادئ، وأخذنا
نشرب ونلهو نتبادل السمر والدعابة والشعر المرثجيل... إلى
أن عقدت الخمر ألسنتنا فكننا نتفاهم بالإشارة.. نتفاهم على
طلب المزيد من الشراب... كل منا سكران، وكل منا يريد
أن يشرب:

فكل كف رأها ظنها قدحًا وكل شخصر رأه ظنه الساقا
وقد كنت أكثرهم نهبًا وظلمًا... لم أكن أشرب كوزًا..
بل كنت أشرب دنا.. كنت أستل ما في الدن، وأدعه
فارغًا.. جسدًا بلا روح!

مازلت أستل روح الدن في لطف وأستقى دمه من جوف مجروح
حتى انثيت ولي روحان في جسد والدن منطرح جسدًا بلا روح!

وقد اكتشفنا في آخر الليل أننا جئنا الحانة وليس مع أحد
منا دينار ولا درهم... وارتابت صاحبة الحانة في أمرنا
فطالبتنا بالأجر فكأشفناها بالحقيقة وطلبنا إليها أن تطلق
سراحنا على أن نعود إليها في الغداة ومعنا أجر الخمر
والطعام... ولكنها أبت إلا أن تستبق واحدًا منا، رهنًا..
فقبلنا، وقالت إنها ستتولى بنفسها اختيار الرهن وخشيت أن

تختارني.. فقد كانت عجوزاً، رومية، قبيحة.. ووقع ما
خشيت، وأطلقت سراحهم جميعاً واستبقتني عندها... وقلت
في ذلك شعراً...
- ماذا قلت؟

أبو نواس في حانات بغداد!!

الأمين يبحث عن نديمه شهرًا ليشرب معه!

قلت : لأبي نواس : هاتها!

فقال : ماذا؟ الخمر؟ ليس عندي خمر؟

- هات قصيدتك في الحانة التي استبقتك صاحبها رهناً

عندها... فقد وعدتني أمس بهذه القصيدة؟

فقال : أي الحانات تعني؟

- حانة الرومية العجوز «حنون» التي ذهبت إليها في

صحبة إخوان السوء ولم يكن معكم دينار ولا درهم فأبت إلا

أن تستبقي أحدكم رهينة، وكنت أنت الرهينة!

فقال : لقد كنت أنا صاحب فكرة استبقاء أحدنا رهينة

ودفعت الثمن غالبًا!

- دفعته نقدًا؟

فقال : يا ليت!

واستطرد يقول : ذهبنا إلى الخانة، كان البرد شديدًا.
والطريق موحشًا :

ولليل جلاباب علينا_ وحوّلنا فما إن نرى إنسًا لديه ولا جنًا

إلى أن طرقتنا بابها بعد هجعة. فقالت : من الطراق؟
قلنا لها :

إننا شبّاب تعارفنا بيسابك...

فقالت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا

فقلت لها : ما الاسم؟ ما السعر؟ بيني

لنا سعرها كيا نـزورك ما عشنا!

فقالت لنا : «حنون» اسمي.. وسعرها

ثلاث بتسع... هكذا غيركم بعنا!

فقلت لها : جئنا وفي المال قلعة

فهل لك في أن تقبلي بعضنا رهننا؟

فقالت لنا : أنت الرهينة عندنا

متى لم تفوا بالمال خلدتك السجناء!!

فسألت : هل صرت رهينتها فعلا؟

فقال : نعم!!



- وهل ذهبت بك إلى السجن؟
فقال: كان السجن أحب إلى مما دعيتني إليه!
- وكم بقيت عندهما؟
فقال: ثلاث ليالٍ!
- وحدك؟

فقال: وحدنا... هي وأنا!
- وكيف أطلقت سراحك؟

فقال: بعد ما أخذت الثمن!
- كم دينارًا أخذت منك؟

فقال: لم تأخذ مالا ولكن أخذت أعصابي!
وابتسم وهو يقول: على أي حال لم أعطيها مالا... ولم
أذهب إلى السجن... ولقد علمني هذا الحادث ألا أطرق باب
حانة إلا إذا كان معي من الدنانير ما يكفي لشراء الحانة...
حتى لا تتكرر مأساة حنون!

- وهل كانت هذه الحانة أجمل حانات بغداد؟
فقال: كانت أول حانة دخلتها في مدينة السلام.
- هل كان للحانات مكان خاص، تتجمع فيه، كسوق

العطارين في الكوفة مثلاً؟

فقال : الحانات في بغداد متفرقة فيها، متناثرة حولها، وقد اختار لها أصحابها أماكن جميلة يحيط بها الزهر والنخيل والشجر ويحف بها ماء النهر بعضها في متناول العين والقدم.. وهذه هي الحانات القائمة في جوف بغداد. وبعضها فوق متناول العيون والأقدام... وهذه هي الحانات القائمة في الضواحي القريبة من بغداد.

- وأى هذه الحانات كان أحب إليك؟

فقال : حانات الضواحي والديساكر... وكنت أحب أن أغشاها ليلاً. أطرق أبوابها وكأني أهاجمها! أدخلها وكأني أسطو عليها! وكان يسرف اضطراب أصحابها وما أثيره فيهم من الذعر أول الأمر... ثم لا يلبث هذا الذعر أن ينقلب إلى دهشة وترحيب!

- كنت إذن تمثل دور الشرطي وأنت تطرق الأبواب،

حتى تخيف أصحاب الحانات!؟

فقال : إن أصحاب الحانات يخافون زوار الليل من اللصوص وقطاع الطريق... لهذا كانوا يغلّقون أبوابهم ليلاً

ويتركون في الباب ثقبًا يسبح دخول الكوز وخروجه . . فإذا سمع صاحب الحانة طرقًا أطل من الثقب وسأل : من الطارق ؟ إن كان من رواد الحانة أدخله . وإن كان ضابط طريق تحدث إليه طويلًا حتى يعرف حقيقته . وإن كان شرطياً أعطاه كوزًا من الخمر حتى يتستر عليه . . . وإن كان قاطع طريق لا يفتح له الباب أبدًا !

وقد كنت أوهم صاحب الحانة بأن من قطاع الطريق . فأترق الباب بشدة ، وأثير ضجة أنا ومن يكون معي من الخلان .

ويطل صاحب الحانة من الثقب فنختبئ عن أنظاره ولا يسمع إلا أصواتنا فيعود إلى داخل الحانة خائفًا . ثم لا يلبث أن يسمع أصوات ضحكاتنا فيجئ ، وقد هدا روعه :

ويادر نحو الباب سعيًا مليًا له طرب بالزائرين عجيب
وقال ادخلوا : حيثمومن عصابة فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فأناره وكل الذي يبغى لديه قريب
فقلنا : أرحنا هات إن كنت بائعًا فإن الدجى عن ملكه سيغيب
فأبدي لنا صهباء تم شبابها لها مرج في كأسها ووثوب !!

وقلت لأبي نواس : يظهر أن جميع الحانات كانت متشابهة
في البناء والأثاث.. والساق والساقية.. والظلام الدامس
والمصباح المنير.. والشجر، والنخيل وأصواد الكروم..
والخمور!

قال : نعم.. وكان لكل حانة عسدا ذلك.. كلاب
محرستها، وتنبه أصحابها إلى الطراق!
- وكيف كنت تجمد المال الذي تنفقه على الخمر كل
ليلة؟

فقال : عندما ذهبت إلى بغداد كان معي مال قليل وقد
أنفقته على نفسي وعلى أصدقاء من المغنين والشعراء، وهؤلاء
تولوا الإنفاق بعد ذلك، إلى أن اتصلت بالخليفة، فكنت أملأ
كفي من عطاياه، وأفرغها في بيوت الخمارين!

- وهل كان الخليفة يعلم بذلك؟

فقال : كان يعلم أكثر من ذلك!

- كان يعلم ماذا؟

فقال أبو نواس : لقد اتفقنا على أن نذهب معاً إلى
بغداد لأحدثك كيف اتصلت بهارون الرشيد، وكيف حبسني،

وكيف أطلق الخليفة الأمين سراحى، ثم حبسنى ثم عفا عنى... وإن أرى أن الحديث عن حانات بغداد سيحدث اضطراباً فى تسلسل الحوادث التاريخية فدعنا من هذا الحديث الآن!

- حدثنا عن حانات بغداد قبل اتصالك بهارون الرشيد وبعد اتصالك به، وبالأمين بعده، فإذا انتهينا من ذلك.. انتقلنا إلى تاريخك مع الخلفاء والحاكمين.. وأهل السلطان! فقال: إن حياتى فى الحانات متشابهة.. سكر وعريضة، ومجون، وسهر طول الليل وطول النهار!!

- حدثنا عن أصحابك فى ارتياد الحانات.

فقال: لقد سبق أن ذكرت لك أسماءهم.. كل المغنين، وكل الشعراء ما عدا أبا العتاهية؟

- كيف كان أصحاب الحانات؟

فقال:

- كانوا رجالاً، وكانوا نساء، وكانوا جميعاً ينشردون الكسب الفاحش.

سألنى بعضهم من أنت؟

وقلت إني نحوت الخمر أخطيبي

قال : الدراهم . هل للمهر إبطاء ؟

- هل كانوا يهودًا ؟

فقال : كانوا من اليهود، والمجوس، والنصارى،

والمسلمين .

فبعض الحانات :

« أتبيح لها مجوسى رقيق » !

وبعضها صاحبها «كريم الهيا، ظاهر الشرك، كافر.. له

دين قسيس، وتدبير كاتب وإطراق جبار، وألفاظ شاعرا،

وبعض الحانات كان صاحبها مجوسياً، ومازلت حتى هذه

اللحظة أحسن إلى واحد منهم هو «سبا شمر» .

- من يكون سبا شمر هذا ؟

فقال : كان أحور العينين جميلاً .

وبادر نحو الباب ممتلئاً ذعرا

فلما قرعنا بابه هب نحائفاً

فقلت له : افتح .. فتية طلبوا خمر

وقال : من الطراق ليلا فناءنا ؟

وأطلع من أزراره قرأ بدر

فأطلق عن أبوابه غير هائب

فقلت له : م الاسم - حيت ؟ قال :
دعاني بي «سابا» ولقبني «شمرا»
فكلنا جيعًا من حلاوة لفظه
نجن، ولم نسطع لمنطقه صبرا!

ومضى أبو نواس يقول :
- وقد ذهبنا إلى حانة، وحسبنا صاحبها نصرانيًا، فقد
كان يشد على وسطه حزامًا، كعادة النصارى، فلما كاشفناه
بظننا، ثار وغضب، وقال : كيف تظنون بي ذلك؟

فسألناه : أمسلم أنت؟
فقال : لا

فقلت : على دين المسيح ابن مريم؟
فأعرض مزورًا، وقال لنا هجرا..
فقد كان يهوديًا واسمه السموع.

- ولكن كيف جرؤ على أن يغضب ليهوديته؟
فقال : لقد غضب لسمعته.. فقد كان اليهود أبرع
الخبارين على الإطلاق.

- وهل كان السموع هذا بارعًا حقًا؟

فقال : كانت خمره روحًا صافية !

وجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا
أتينا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى ألقنا بها شهرا

- لم تذكر لي شيئا عن الخمارين المسلمين !!

فقال : كانوا فاشلين.. ولم يعجبني منهم إلا جابر.

- وكيف كان موقف الخليفة منك؟

فقال : كان الخليفة الأمين لا يطيق بعدى عنه.. كان
ينهى عن الشراب إلا معه.. وقد هددني بقطع رأسي إذا أنا
ذهبت إلى الحانات، ولكني برغم تهديده ظللت أعاقر الخمر
سرا...

وقد حدث أن رحلت من بغداد إلى الكوفة، وذهبت إلى
حانة جابر، وهي تقع في الحيرة، وكان جابر ههنا لسطيف
الخلقة، نظيف الثياب، يهيم بأدوات الشراب، وقد التقيت
عنده بصديقي ابن الصلصال، وكان يعرف شدة شغفي بالخمر،
والاستماع إلى الغناء، فقدم لي الشراب، وجمع المغنين وضاربي
الطنبور، فامتنعت عن الشراب وقلت له : « ألم تعلم بما حدث
لي ؟ .. لقد نهى أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدني عليه .. »

واكتفيت بسماع الأغاني، وشم رائحة الخمر وقلت قصيدتي :
أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شمياً
ولكني لم أطق صبراً على ذلك. فما هي إلا ساعة، حتى
وجدتني أشرب الخمر، وكنت أصبح من فرط النشوة
والغيبط... «هاتها.. هاها..» ولعنت الأمين.. وأم الأمين !
ولما عدت إلى بغداد، وقابلت الأمين سألتني أين كنت؟
فأخبرته بأن كنت عند صديق ابن الصلصال. ورويت له ما
حدث من امتناعي عن الشراب أول الأمر.. فقال لي وماذا
صنعت آخر الأمر؟

فقلت : « شربت والله يا أمير المؤمنين ! فطلب مني أن
أشخص إلى صديقي وأتى به إلى أمير المؤمنين؛ وقد أدناه منه
وأحب فيه قدرته على الشراب وظل معه إلى أن لقي الأمين
مصرعه !

- يبدو أن الأمين كان مولعاً بالخمر؟
فقال : لا أعرف أحداً هام بالخمر كما هام بها أمير
المؤمنين الأمين !

- أمير مؤمنين.. ويشرب الخمر؟!

فقال : ليس هذا هو العجب !! ولكن العجب أن
يشربها، ويقم الحد على من يشربها!
- ولكن الأمين كان صديقك ا

فقال : وهل الصداقة تمنع من ذكر حقيقة الصديق... ؟
لقد أحببته، وكان لا يصبر عني عندما ينشط للشراب، وكان
يطلبني بعض الأحيان فلا يكاد يجذني، فيغضب غضبًا شديدًا
وكان بعض ندمائه يحسدني على موضعي منه، فانتهاز فرصة
غيابي عن الأمين.. وغضب الأمين من هذه الغيبة.. وسبني
أمامه وقال له : يا أمير المؤمنين : هذا شخص ينادم السفلة
والسوقة، ويغشى الحانات، ويرتكب الفواحش، وإن في منادمته
لك تجرئًا لأمير المؤمنين.. فأسكته الأمين وقال له : ألغ هذا
الكلام.. فوالله ما ينبغي أن يكون نديم خليفة إلا مثله في
أدبه، وظرفه، وعلمه، وكهال خصاله. وما غضبت عليه إلا
تأسفًا على ما يفوتني منه!

وعقب أبو نواس قائلا : مثل هذا الإنسان أحبه، ولكني
لا أستطيع أن أتستر على حقيقته.. وهذه الحقيقة هي أنه
أولع بالخمرة. ولم يولع بشيء سواها!

واستطرد يقول : وقد حدث أن غبت عن الأمير شهرًا، فبعث رسله ليبحثوا عني، وجاءوا إلي، وأخبروه أني كنت أقيم في حانة أحد اليهود، منذ شهر، لا أفيق من السكر، أنا وأصحابي.. فغضب الأمين، وأحضرني بين يديه وقال لي : لقد هممت أن أضرب عنقك. وحلف إذا شربت في حانة مع الناس فإنه سيقتلني، ووضع لي العيون والجواسيس ثم قال لي اخرج من عندي ! فخرجت وقد صح عزمي على ترك منادمة الناس والشراب في الحانات خوفًا على نفسي.

وجفاني الأمين. وبعد أيام بيئنا كان الأمين في مجلس شرايه طابت نفسه لرؤيتي، فدعاني إليه، فلما التقيت به شكوت إليه ما نالني من غضبه، وسألته الصفح فأعدني إلى جواره وقال لي :

- «هيه... تظل شهرًا في منزل يهودي منتن.. متكئًا على دن مزفت وأنا أطلبك في كل مكان ولا أقدر عليك»!؟
فقلت له يا أمير المؤمنين :

- من تمام العفو ألا تذكر الذنب..

فضحك وسأل ماذا قلت في هذا الشهر من الشعر؟

فأنشدته قصيدتي الرائية وفيها أقول :

إذا ما أتى وقت الصلاة تراهمو يحشونها . . . حتى تفوتهموسكرا
فاستحسن الأمين ذلك وقال لغلامه : اسق القوم ولا
تسق أبا نواس فقلت له : يا أمير المؤمنين . لم ؟ فقال لأنك
تصف الساقى إذا ناولك الكأس بأنه قد سقاك كأسين . .
كأساً بعينه وكأساً بيده . . فإذا تقول الآن إذا لم يسقك
: شيئاً !

فأنشدته قصيدتي البائية . . وفيها أقول :

سقاى ومناى بعينه منية فكانت إلى قلبى ألد وأطيبا
فقال الأمين : ويحك . . لم ينج منك الساقى على أى
حال . . اسقه يا غلام !

محتويات الكتاب

صفحة

- ليالى « أبو نواس » مع أستاذه الأول ٥
- « أبو نواس » لا تنقصه الصراحة ٢٠
- « أبو نواس » يهرب من أستاذه ٣٦
- كيف ومتى أصبح شاعرًا؟ ٥٢
- عنان التى أحبها أبو نواس !! ٦٩
- المدينة التى لا يموت فيها خليفة أبدًا !! ٨٠
- أبو نواس فى حانات بغداد !! ٩٥

رقم الإبداع	١٩٨٧ / ٢٦٨١
' الترقيم الدولي	٤٧٧-٠٢-٢٠٠٦-٢٤

١ / ٨٦ / ٢٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

